تفسير سورة مريم

هى مكية وآياتها ثمان وتسعون آية. أخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت بمكة سورة ﴿ **كهيعص** ﴾. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال: نزلت سورة مريم بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله . وأخرج أحمد وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل عن أم سلمة ؛ أن النجاشى قال لجعفر بن أبى طالب : هل معك مما جاء به ، يعنى رسول الله ﷺ ، عن الله شىء ؟ قال : نعم ، فقرأ عليه صدرًا من ﴿ **كهيعص** ﴾ فبكى النجاشى حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة . وقد ذكر ابن إسحاق القصة بطولها [١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **كهيعص** ﴾ قرأ أبو جعفر هذه الحروف مقطعة، ووصلها الباقون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وعكس ذلك ابن عامر وحمزة ، وأمالهما جميعا الكسائى وأبو بكر وخلف ، وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم « كاف » ، وحكى عن غيره أنه كان يضم « ها ». وقال أبو حاتم : لا يجوز ضمّ الكاف ولا الهاء ولا الياء. قال النحاس : قراءة أهل المدينة من أحسن ما فى هذا ، والإمالة جائزة فى «ها» وفى « يا » وقد اعترض على قراءة الحسن جماعة . وقيل فى تأويلها : أنه كان يشم الرفع فقط. وأظهر الدال من

---

(١) أحمد ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٣٠٠ وابن إسحاق ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٣ .

هجاء «صاد» نافع وأبو جعفر وابن كثير وعاصم ويعقوب، وهو اختيار أبى عبيد وأدغمها الباقون. وقد قيل فى توجيه هذه القراءات: إن التفخيم هو الأصل ، والإمالة فرع عنه ، فمن قرأ بتفخيم الهاء والياء فقد عمل بالأصل ، ومن أمالهما فقد عمل بالفرع ، ومن أمال أحدهما وفخم الآخر فقد عمل بالأمرين ، وقد تقدم الكلام فى هذه الحروف الواقعة فى فواتح السور مستوفى فى أوائل سورة البقرة .

ومحل هذه الفاتحة إن جعلت اسما للسورة على ما عليه الأكثر، الرفع على أنها مبتدأ خبرها ما بعدها ، قاله الفراء . واعترضه الزجاج فقال : هذا محال لأن ﴿ **كهيعص** ﴾ ليس هو مما أنبأنا الله عزّ وجلّ به عن زكريا، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عنه وعما بشر به ، وليس ﴿ **كهيعص** ﴾ من قصته ، أو على أنها خبرمبتدأ محذوف . وإن جعلت مسرودة على نمط التعديد ، فقوله : ﴿**ذكر رحمة ربك** ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أى هذا ذكر رحمة ربك. وقيل : هو مبتدأ خبره محذوف ، أى فيما يتلى عليك ذكر رحمة ربك . قال الزجاج : ﴿ **ذكر** ﴾ مرتفع بالضمير ، والمعنى : هذا الذى نتلوه عليك ذكر رحمة ربك ﴿ **عبده زكريا** ﴾ يعنى : إجابته إياه حين دعاه وسأله الولد ، وانتصاب ﴿ **عبده** ﴾ على أنه مفعول للرحمة ، قاله الأخفش . وقيل : للذكر . ومعنى ذكر الرحمة : بلوغها وإصابتها ، كما يقال : ذكرنى معروف فلان ، أى بلغنى . وقرأ يحيى بن يعمر : « ذكر » بالنصب ، وقرأ أبو العالية «عبده» بالرفع على أن المصدر مضاف إلى المفعول ، وفاعل الذكر هو عبده ، وزكريا على القراءتين عطف بيان له أو بدل منه ، وقرأ الكلبى: « ذكر » على صيغة الفعل الماضى مشدّدًا ومخففًا على أن الفاعل عبده ، وقرأ ابن معمر على الأمر ، وتكون الرحمة على هذا عبارة عن زكريا ، لأن كل نبى رحمة لأمته .

﴿ **إذ نادى ربه نداء خفيا** ﴾ العامل فى الظرف : رحمة . وقيل : ذكر . وقيل : هو بدل اشتمال من زكريا. واختلف فى وجه كون ندائه هذا خفيًا ، فقيل : لأنه أبعد عن الرياء ، وقيل: أخفاه ، لئلا يلام على طلبه للولد فى غير وقته ، ولكونه من أمور الدنيا . وقيل : أخفاه مخافة من قومه . وقيل : كان ذلك منه لكونه قد صار ضعيفًا هرمًا لا يقدر على الجهر . ﴿**قال رب إنى وهن العظم منى** ﴾ هذه الجملة مفسرة لقوله: ﴿ **نادى ربه** ﴾ يقال : وهن يهن وهنا: إذا ضعف فهو واهن ، وقرئ بالحركات الثلاث، أراد أن عظامه فترت وضعفت قوته، وذكر العظم، لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه ، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته ، ولأن أشد ما فى الإنسان صلبه ، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ، ووحد العظم قصدًا إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام ﴿ **واشتعل الرأس شيبا** ﴾ قرأ أبو عمرو بإدغام السين فى الشين ، والباقون بعدمه ، والاشتعال فى الأصل: انتشار شعاع النار ، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس فى سواده بجامع البياض والإنارة ، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية ، بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه ، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها . قال الزجاج : يقال للشيب إذا كثر جدًا : قد اشتعل رأس فلان ، وأنشد للبيد :

فإن ترى رأسى أمسى واضحًا سلط الشيب عليه فاشتعل

وانتصاب ﴿ **شيبا** ﴾ على التمييز ، قاله الزجاج . وقال الأخفش : انتصابه على المصدر ، لأن معنى اشتعل : شاب . قال النحاس :قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل ، والمصدرية أظهر فيما كان كذلك، وكان الأصل اشتعل شيب رأسى ، فأسند الاشتعال إلى الرأس لإفادة الشمول ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ أى لم أكن بدعائى إياك خائبا فى وقت من الأوقات ، بل كلما دعوتك استجبت لى . قال العلماء : يستحب للمرء أن يجمع فى دعائه بين الخضوع ، وذكر نعم الله عليه كما فعل زكريا ها هنا ، فإن فى قوله : ﴿ **وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا** ﴾ غاية الخضوع والتذلل وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه ، وبلوغ مآربه ، وفى قوله: ﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقيا** ﴾ ذكر ما عوّده الله من الإنعام عليه بإجابة أدعيته ، يقال: شقى بكذا ، أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه .

﴿ **وإنى خفت الموالى من ورائى** ﴾ قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على بن الحسين وأبوه على ويحيى بن يعمر : « خفت » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وفاعله ﴿ **الموالى** ﴾ أى قلوا وعجزوا عن القيام بأمر الدين بعدى ، أو انقطعوا بالموت ، مأخوذًا من خفت القوم إذا ارتحلوا ، وهذه قراءة شاذة بعيدة عن الصواب . وقرأ الباقون : ﴿ **خفت** ﴾ بكسر الخاء وسكون الفاء على أن فاعله ضمير يعود إلى زكريا ، ومفعوله الموالى ، ومن ورائى متعلق بمحذوف لا بـ ﴿ **خفت** ﴾ وتقديره : خفت فعل الموالى من بعدى . قرأ الجمهور:﴿ **ورائى** ﴾ بالهمز والمد وسكون الياء ، وقرأ ابن كثير بالهمز والمدّ وفتح الياء. وروى عنه أنه قرأ بالقصر مفتوح الياء ، مثل عصاى . والموالى هنا هم الأقارب الذين يرثون وسائر العصبات من بنى العمّ ونحوهم ، والعرب تسمى هؤلاء موالى ، قال الشاعر :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا لا تنشروا بيننا ما كان مدفونا

قيل : الموالى الناصرون له . واختلفوا فى وجه المخافة من زكريا لمواليه من بعده ، فقيل : خاف أن يرثوا ماله ، وأراد أن يرثه ولده ، فطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولدًا. وقال آخرون: إنهم كانوا مهملين لأمر الدين ، فخاف أن يضيع الدين بموته ، فطلب وليًا يقوم به بعد موته . وهذا القول أرجح من الأول لأن الأنبياء لا يورثون وهم أجل من أن يعتنوا بأمور الدنيا ، فليس المراد هنا : وراثة المال ، بل المراد : وراثة العلم والنبوة والقيام بأمر الدين وقد ثبت عن نبينا ﷺ أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » (١) ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ العاقر : هى التى لا تلد لكبر سنها ، والتى لا تلد أيضًا لغير كبر وهى المرادة هنا ، ويقال للرجل الذى لا يلد : عاقر أيضًا ، ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقرًا

---

(١) أحمد ١/ ١٠ .

قال ابن جرير : وكان اسم امرأته : أشاع بنت فاقود بن ميل ، وهى أخت حنة ، وحنة هى أم مريم . وقال القتيبى : هى أشاع بنت عمران ، فعلى القول الأول يكون يحيى بن زكريا ابن خالة أم عيسى ، وعلى القول الثانى يكونان ابنى خالة كما ورد فى الحديث الصحيح [١] .

﴿ **فهب لى من لدنك وليا** ﴾ أى أعطنى من فضلك وليا ، ولم يصرح بطلب الولد لما علم من نفسه بأنه قد صار هو وامرأته فى حالة لا يجوز فيها حدوث الولد بينهما وحصوله منهما . وقد قيل : إنه كان ابن بضع وتسعين سنة . وقيل : بل أراد بالولى الذى طلبه هو الولد ، ولا مانع من سؤال من كان مثله لما هو خارق للعادة ، فإن اللّه سبحانه قد يكرم رسله بما يكون كذلك ، فيكون من جملة المعجزات الدالة على صدقهم .

﴿ **يرثنى ويرث من آل يعقوب** ﴾ قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة وابن محيصن واليزيدى ويحيى بن المبارك [٢] بالرفع فى الفعلين جميعًا ، على أنهما صفتان للولى وليسا بجواب للدعاء . وقرأ يحيى بن يعمر وأبو عمرو ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائى بالجزم فيهما ، على أنهما جواب للدعاء . ورجح القراءة الأولى أبو عبيد وقال: هى أصوب فى المعنى؛ لأنه طلب وليًا هذه صفته فقال : هب لى الذى يكون وارثى . ورجح ذلك النحاس وقال : لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة ، تقول : أطع اللّه يدخلك الجنة ، أى إن تطعه يدخلك الجنة ، وكيف يخبر اللّه سبحانه بهذا ، أعنى كونه أن يهب له وليا يرثه ، وهو أعلم بذلك ، والوراثة هنا هى وراثة العلم والنبوة على ما هو الراجح كما سلف . وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن يعقوب المذكور هنا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وزعم بعض المفسرين أنه يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان ، وبه قال الكلبى ومقاتل ، وآل يعقوب هم خاصته الذين يؤول أمرهم إليه للقرابة أو الصحبة أو الموافقة فى الدين، وقد كان فيهم أنبياء وملوك، وقرئ : « يرثنى وارث من آل يعقوب » على أنه فاعل يرثنى . وقرئ : « وأرث آل يعقوب » أى أنا. وقرئ: «أو يرث آل يعقوب» بلفظ التصغير على أن هذا المصغر فاعل يرثنى. وهذه القراءات فى غاية الشذوذ لفظًا ومعنى ﴿ **واجعله رب رضيا** ﴾ أى مرضيًا فى أخلاقه وأفعاله ، وقيل: راضيًا بقضائك وقدرك ، وقيل : رجلاً صالحًا ترضى عنه ، وقيل : نبيا كما جعلت آباءه أنبياء.

﴿ **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى** ﴾ قال جمهور المفسرين : إن هذا النداء من اللّه سبحانه . وقيل : إنه من جهة الملائكة ، لقوله فى آل عمران : ﴿ فنادته الملائكة ﴾ [الآية: ٣٩]، وفى الكلام حذف ، أى فاستجاب له دعاءه ، فقال : يا زكريا، وقد تقدم فى آل عمران وجه التسمية بيحيى وزكريا . قال الزجاج :سمى يحيى لأنه حيى بالعلم والحكمة التى أوتيها

---

(١) البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٣٠) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة . . . « فلما خلصت فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة » .

(٢) فى المخطوطة : « واليزيدى ويحيى بن المبارك » والصواب : « ويحيى بن المبارك اليزيدى » . معرفة القراء الكبار للذهبى ١/ ١٥١ (٦٢) .

﴿**لم نجعل له من قبل سميا**﴾ قال أكثر المفسرين: معناه: لم نسم أحدًا قبله يحيى . وقال مجاهد وجماعة : معنى ﴿ **لم نجعل له من قبل سميا** ﴾ : أنه لم يجعل له مثلا ولا نظيرًا ، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السموّ ، وردّ هذا بأنه يقتضى تفضيله على إبراهيم وموسى . وقيل : معناه : لم تلد عاقر مثله ، والأول أولى . وفى إخباره سبحانه بأنه لم يسم بهذا الاسم قبله أحد فضيلة له من جهتين : الأولى : أن اللّه سبحانه هو الذى تولى تسميته به ، ولم يكلها إلى الأبوين . والجهة الثانية : أن تسميته باسم لم يوضع لغيره يفيد تشريفه وتعظيمه .

﴿ **قال رب أنى يكون لى غلام** ﴾ أى كيف أو من أين يكون لى غلام ؟ وليس معنى هذا الاستفهام الإنكار، بل التعجب من قدرة اللّه وبديع صنعه ، حيث يخرج ولدًا من امرأة عاقر وشيخ كبير. وقد تقدم الكلام على مثل هذا فى آل عمران، ﴿ **وقد بلغت من الكبر عتيا** ﴾ يقال: عتا الشيخ يعتو عتيًا إذا انتهى سنه وكبر، وشيخ عات إذا صار إلى حال اليبس والجفاف، والأصل عتوا لأنه من ذوات الواو فأبدلوه ياء لكونها أخف ، ومثل ما فى الآية قول الشاعر :

إنما يعذر الوليد ولا يعـ ـــذر من كان فى الزمان عتيًا

وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وحفص والأعمش ﴿**عتيا**﴾ بكسر العين.وقرأ الباقون بضم العين وهما لغتان ، ومحل جملة ﴿ **وكانت امرأتى عاقرا** ﴾ النصب على الحال من ضمير المتكلم ، ومحل جملة ﴿ **وقد بلغت من الكبر عتيا** ﴾ النصب أيضًا على الحال، وكلا الجملتين لتأكيد الاستبعاد والتعجب المستفاد من قوله:﴿ **أنى يكون لى غلام** ﴾ أى كيف يحصل بيننا ولد الآن، وقد كانت امرأتى عاقرًا لم تلد فى شبابها وشبابى، وهى الآن عجوز، وأنا شيخ هرم ؟

ثم أجاب اللّه سبحانه على هذا السؤال المشعر بالتعجب والاستبعاد بقوله : ﴿ **قال كذلك قال ربك** ﴾ الكاف فى محل رفع ، أى الأمر كذلك ، والإشارة إلى ما سبق من قول زكريا ، ثم ابتدأ بقوله : ﴿ **قال ربك** ﴾ ويحتمل أن يكون محله النصب على المصدرية ، أى قال قولا مثل ذلك ، والإشارة بذلك إلى مبهم يفسره قوله: ﴿ **هو على هين** ﴾ وأما على الاحتمال الأول فتكون جملة ﴿ **هو على هين** ﴾ مستأنفة مسوقة لإزالة استبعاد زكريا بعد تقريره ، أى قال : هو مع بعده عندك ، على هين ، وهو فيعل من هان الشىء يهون إذا لم يصعب ولم يمتنع من المراد. قال الفراء : أى خلقه على هين ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾ هذه الجملة مقررة لما قبلها، قال الزجاج :أى فخلق الولد لك ،كخلقك ، والمعنى : أن اللّه سبحانه خلقه ابتداء وأوجده من العدم المحض ، فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئًا ، للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم . قرأ أهل المدينة وأهل مكة والبصرة وعاصم وابن عامر ﴿ **وقد خلقتك من قبل** ﴾ وقرأ سائر الكوفيين : « وقد خلقناك من قبل » .

﴿ **قال رب اجعل لى آية** ﴾ أى علامة تدلنى على وقوع المسؤول وتحققه وحصول الحبل ، والمقصود من هذا السؤال تعريفه وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه. قال ابن الأنبارى: وجه ذلك : أن نفسه تاقت إلى سرعة الأمر، فسأل اللّه آية يستدل بها على قرب ما منّ به عليه . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى من اللّه سبحانه لا من الشيطان ، لأن إبليس أوهمه بذلك ، كذا قال الضحاك والسدّى وهو بعيد جدًا ﴿ **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ قد تقدم تفسير هذا فى آل عمران مستوفى، وانتصاب ﴿ **سويا** ﴾ على الحال، والمعنى : آيتك ألا تقدر على الكلام والحال أنك سوى الخلق ليس بك آفة تمنعك منه، وقد دل بذكر الليالى هنا والأيام فى آل عمران . أن المراد ثلاثة أيام ولياليهن .

﴿ **فخرج على قومه من المحراب** ﴾ وهو مصلاه ، واشتقاقه من الحرب ، كأن ملازمه يحارب الشيطان . وقيل : من الحرب محركًا ، كأن ملازمه يلقى حربًا وتعبًا ونصبًا ﴿ **فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ قيل :معنى ﴿ **أوحى** ﴾ : أومأ بدليل قوله فى آل عمران : ﴿ إلا رمزا ﴾ [آل عمران : ٤١] . وقيل : كتب لهم فى الأرض . وبالأول قال الكلبى والقرظى وقتادة وابن منبه ، وبالثانى قال مجاهد . وقد يطلق الوحى على الكتابة ومنه قول ذى الرّمة :

سوى الأربع الدهم اللواتى كأنها بقية وحى فى بطون الصحائف

وقال عنترة :

كوحى صحائف من عهد كسرى فأهداها لأعجم طمطمىّ

و« أن » فى قوله :﴿ **أن سبحوه** ﴾ مصدرية أو مفسرة ، والمعنى :فأوحى إليهم بأن صلوا، أو أى صلوا، وانتصاب ﴿ **بكرة** ﴾ و ﴿ **عشيا** ﴾ على الظرفية. قال الفراء: العشى يؤنث، ويجوز تذكيره إذا أبهم. قال: وقد يقال: العشى جمع عشية، قيل: والمراد: صلاة الفجر والعصر. وقيل: المراد بالتسبيح: هو قولهم: سبحان اللّه فى الوقتين: أى نزهوا ربكم طرفى النهار .

وقد أخرج الفريابى وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كهيعص** ﴾ كبير هاد أمين عزيز صادق ، وفى لفظ : كاف بدل كبير . وأخرج عبد الرزاق وآدم بن أبى أياس ، وعثمان بن سعيد الدارمى فى التوحيد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس : ﴿ **كهيعص** ﴾ قال : كاف من كريم ، وهاء من هاد ، وياء من حكيم ، وعين من عليم ، وصاد من صادق . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود وناس من الصحابة : ﴿**كهيعص** ﴾ هو الهجاء المقطع ، والكاف من الملك ، والهاء

من اللّه ، والياء والعين من العزيز ، والصاد من المصور . وأخرج ابن مردويه عن الكلبى أنه سئل عن ﴿ كهيعص ﴾ فحدّث عن أبى صالح عن أم هانئ عن رسول اللّه ﷺ قال : «كاف هاد عالم صادق » . وأخرج عثمان بن سعيد الدارمى وابن ماجة وابن جرير عن فاطمة ابنة على قالت : كان على يقول : يا كهيعص اغفر لى . وأخرج أبو الشيخ فى العظمة ، وابن مردويه من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى : ﴿ كهيعص ﴾ قال : الكاف الكافى ، والهاء الهادى ، والعين العالم ، والصاد الصادق . وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن السدى قال : كان ابن عباس يقول فى كهيعص وحم ويس وأشباه هذا : هو اسم اللّه الأعظم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : هو قسم أقسم اللّه به ، وهو من أسماء اللّه .

وكما وقع الخلاف فى هذا وأمثاله بين الصحابة فى ذلك وقع بين من بعدهم ، ولم يصح مرفوعًا فى ذلك شيء . ومن روى عنه من الصحابة فى ذلك شيء فقد روى عن غيره ما يخالفه، وقد يروى عن الصحابى نفسه التفاسير المتخالفة المتناقضة فى هذه الفواتح فلا يقوم شيء من ذلك حجة ، بل الحق الوقف ، ورد العلم فى مثلها إلى اللّه سبحانه ، وقد قدمنا تحقيق هذا فى فاتحة سورة البقرة .

وأخرج أحمد وأبو يعلى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كان زكريا نجارًا » (١) . وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : كان آخر أنبياء بنى إسرائيل زكريا بن آزر بن مسلم من ذرية يعقوب دعا ربه سرًا ﴿ **قال رب إنى وهن العظم منى** ﴾ إلى قوله : ﴿ **خفت الموالى** ﴾ قال : وهم العصبة ﴿ **يرثنى** ﴾ نبوتى ونبوة آل يعقوب ، فنادته الملائكة ، وهوجبريل : إن اللّه يبشرك ﴿ **بغلام اسمه يحيى** ﴾ فلما سمع النداء جاءه الشيطان فقال : يا زكريا ، إن الصوت الذى سمعت ليس من اللّه إنما هو من الشيطان سخر بك، فشك وقال : ﴿ **أنى يكون لى غلام** ﴾ يقول : من أين يكون وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر، قال اللّه : ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾(٢) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿**وإنى خفت الموالى من ورائى** ﴾ قال: الورثة: وهم عصبة الرجل. وأخرج الفريابى عنه قال : كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال : رب ﴿ **هب لي من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب** ﴾ قال: يرث مالى ويرث من آل يعقوب النبوة .

وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لم نجعل له من قبل سميا** ﴾ قال : مثلا . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وأبو داود وابن جرير ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عنه قال : لا أدرى كيف كان رسول اللّه ﷺ يقرأ هذا الحرف عتيا أو عسيا . وأخرج ابن أبى حاتم عن

---

(١) أحمد ٢/ ٢٦٩ وأبو يعلى (٦٤٢٦) وصححه الحاكم ٢/ ٥٩٠ وسكت عنه الذهبى .

(٢) صححه الحاكم ٢ / ٥٩٠ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، ولكن الإمام الشوكانى كان لا يحتج بهذه السلسلة .

عطاء فى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : لبث زمانًا فى الكبر. وأخرج أيضًا عن السدى قال : هرمًا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا** ﴾ قال : اعتقل لسانه من غير مرض ، وفى لفظ من غير خرس ؛ أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا : ﴿ **فأوحى إليهم** ﴾ قال: كتب لهم كتابًا. وأخرج ابن أبى الدنيا ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أن سبحوا** ﴾ قال : أمرهم بالصلاة ﴿ **بكرة وعشيا** ﴾.

﴿ **يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾** ﴾ .

قوله : ﴿ **يا يحيى** ﴾ ها هنا حذف ، وتقديره : وقال الله للمولود : يا يحيى ، أو فولد له مولود فبلغ المبلغ الذى يجوز أن يخاطب فيه ، فقلنا له : يا يحيى . وقال الزجاج : المعنى: فوهبنا له وقلنا له : يا يحيى . والمراد بالكتاب : التوراة ، لأنه المعهود حينئذ ، ويحتمل أن يكون كتابًا مختصًا به وإن كنا لا نعرفه الآن ، والمراد بالأخذ : إما الأخذ الحسى أو الأخذ من حيث المعنى وهو القيام بما فيه كما ينبغى ، وذلك بتحصيل ملكة تقتضى سهولة الإقدام على المأمور به ، والإحجام عن المنهى عنه ، ثم أكده بقوله : ﴿ **بقوة** ﴾ أى بجد وعزيمة واجتهاد ﴿**وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ المراد بالحكم : الحكمة وهى الفهم للكتاب الذى أمر بأخذه وفهم الأحكام الدينية . وقيل : هى العلم وحفظه والعمل به . وقيل : النبوة . وقيل : العقل ، ولا مانع من أن يكون الحكم صالحًا لحمله على جميع ما ذكر . قيل : كان يحيى عند هذا الخطاب له ابن سنتين ، وقيل : ابن ثلاث .

﴿ **وحنانا من لدنا** ﴾ معطوف على الحكم . قال جمهور المفسرين : الحنان الرحمة والشفقة والعطف والمحبة ، وأصله: توقان النفس ، مأخوذ من حنين الناقة على ولدها. قال أبو عبيدة : تقول : حنانك يارب ، وحنانيك يارب ، بمعنى واحد ، يريد : رحمتك . قال طرفة :

أبا منذرأفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشرّ أهون من بعض

وقال امرؤ القيس :

ويمنحها بنو سلخ بن بكر معيزهم ، حنانك ذا الحنان

قال ابن الأعرابى :الحنان مشدّدًا من صفات الله عزّ وجلّ ، والحنان مخففًا:العطف والرحمة . والحنان :الرزق والبركة . قال ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضًا ما عظم من الأمور فى ذات الله ، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حنانًا ، يعنى : بلالاً ، لما مرّ به وهو يعذب . وقيل : إن القائل لذلك هو ورقة بن نوفل . قال

الأزهرى : معنى ذلك : لأترحمن عليه ، ولأتعطفن عليه لأنه من أهل الجنة ، ومثله قول الحطيئة :

تحـنن عــلىّ هــداك المـليك فــإن لكــل مــقام مقالا

ومعنى ﴿ **من لدنا** ﴾ : من جنابنا . قيل : ويجوز أن يكون المعنى : أعطيناه رحمة من لدنا كائنة فى قلبه يتحنن بها على الناس ، ومنهم أبواه وقرابته حتى يخلصهم من الكفر ﴿**وزكاة**﴾ معطوف على ما قبله ، والزكاة التطهير والبركة والتنمية والبر، أى جعلناه مباركا للناس يهديهم إلى الخير. وقيل : زكيناه بحسن الثناء عليه كتزكية الشهور. وقيل: صدقة تصدقنا به على أبويه، قاله ابن قتيبة ﴿ **وكان تقيا** ﴾ أى متجنبا لمعاصى اللّه مطيعًا له . وقد روى أنه لم يعمل معصية قط .

﴿ **وبرا بوالديه** ﴾ معطوف على ﴿ **تقيا** ﴾ البرّ هنا بمعنى البار ، فعل بمعنى فاعل، والمعنى: لطيفًا بهما محسنًا إليهما ﴿ **ولم يكن جبارا عصيا** ﴾ أى لم يكن متكبرًا ولا عاصيًا لوالديه أو لربه، وهذا وصف له عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح ﴿ **وسلام عليه** ﴾ قال ابن جرير وغيره : معناه : أمان عليه من اللّه . قال ابن عطية: والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة، فهى أشرف وأنبه من الأمان لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه ، وهو أقل درجاته ، وإنما الشرف فى أن يسلم اللّه عليه ، ومعنى ﴿ **يوم ولد** ﴾ أنه أمن من الشيطان وغيره فى ذلك اليوم ، أو أن اللّه حياه فى ذلك اليوم ، وهكذا معنى ﴿ **يوم يموت** ﴾ وهكذا معنى ﴿**يوم يبعث حيا** ﴾ قيل: أوحش ما يكون الإنسان فى ثلاثة مواطن : يوم ولد لأنه خرج مما كان فيه ، ويوم يموت لأنه يرى قومًا لم يكن قد عرفهم وأحكامًا ليس له بها عهد ، ويوم يبعث لأنه يرى هول يوم القيامة . فخصّ اللّه سبحانه يحيى بالكرامة والسلامة فى المواطن الثلاثة .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ قال : بجد ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ قال : الفهم . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: يقول: اعمل بما فيه من فرائض . وأخرج ابن المنذر عن مالك ابن دينار قال : اللب . وأخرج أبو نعيم والديلمى وابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ قال : « أعطى الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين » (١) وأخرج عبد اللّه بن أحمد فى زوائد الزهد ، وابن أبى حاتم عن قتادة : بدله وهو ابن ثلاث سنين . وأخرج الحاكم فى تاريخه من طريق نهشل بن سعد عن الضحاك عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « قال الغلمان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب، فقال يحيى: ما للعب خلقنا ، اذهبوا نصلى ، فهو قول اللّه :﴿ **وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ ». وأخرج ابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من قرأ القرآن قبل أن يحتلم، فهو

---

(١) الديلمى (٧١٦٨) .

ممن أوتى الحكم صبيًا» [١] وأخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس موقوفًا .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الأسماء والصفات من طريق عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وحنانا** ﴾ قال : لا أدرى ما هو إلا أنى أظنه يعطف اللّه على عبده بالرحمة ، وقد فسرها جماعة من السلف بالرحمة. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وزكاة**﴾ قال : بركة ، وفى قوله : ﴿ **وكان تقيا** ﴾ قال : طهر فلم يعمل بذنب .

﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)** ﴾ .

قوله : ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم** ﴾ هذا شروع فى ابتداء خلق عيسى . والمراد بالكتاب : هذه السورة ، أى اذكر يا محمد للناس فى هذه السورة قصة مريم ، ويجوز أن يراد بالكتاب : جنس القرآن وهذه السورة منه ، ولما كان الذكر لا يتعلق بالأعيان احتيج إلى تقدير مضاف يتعلق به الذكر ، وهو قصة مريم ، أو خبر مريم ﴿ **إذ انتبذت** ﴾ العامل فى الظرف هو ذلك المضاف المقدّر ،ويجوز أن يجعل بدل اشتمال من مريم ، لأن الأزمان مشتملة على ما فيها، ويكون المراد بمريم : خبرها ، وفى هذا الإبدال دلالة على تفخيم شأن الوقت لوقوع قصتها العجيبة فيه، والنبذ: الطرح والرمى . قال اللّه سبحانه: ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ [آل عمران : ١٨٧] والمعنى : أنها تنحت وتباعدت . وقال ابن قتيبة: اعتزلت. وقيل : انفردت ، والمعانى متقاربة . واختلفوا فى سبب انتباذها ، فقيل : لأجل أن تعبد اللّه سبحانه . وقيل : لتطهر من حيضها ، و ﴿ **من أهلها** ﴾ متعلق بـ ﴿ **انتبذت** ﴾ ، وانتصاب ﴿ **مكانا شرقيا** ﴾ على المفعولية للفعل المذكور ، أى مكانًا من جانب الشرق ، والشرق بسكون الراء : المكان الذى تشرق فيه

(١) البيهقى فى الشعب (١٧٩٨) وإسناده ضعيف فيه الحسن بن أبى جعفر الجفرى وهو ضعيف .

الشمس ، وإنما خصّ المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة الشرق لأنها مطلع الأنوار، حكى معناه ابن جرير . وقد اختلف الناس فى نبوة مريم ، فقيل : إنها نبية بمجرد هذا الإرسال إليها ومخاطبتها للملك . وقيل : لم تكن نبية ، لأنه إنما كلمها الملك وهو على مثال البشر ، وقد تقدم الكلام فى هذا فى آل عمران .

﴿ **فاتخذت من دونهم حجابا** ﴾ أى اتخذت من دون أهلها حجابًا يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة ، أو حال التطهر من الحيض ، والحجاب الستر والحاجز ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾ هو جبريل عليه السلام. وقيل : هو روح عيسى ، لأن الله سبحانه خلق الأرواح قبل الأجساد ، والأول أولى لقوله :﴿ **فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ أى تمثل جبريل لها بشرًا مستوى الخلق لم يفقد من نعوت بنى آدم شيئًا . قيل : ووجه تمثل الملك لها بشرًا أنها لا تطيق أن تنظر إلى الملك وهو على صورته، فلما رأته فى صورة إنسان حسن كامل الخلق قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء، فاستعاذت بالله منه ، و ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ أى ممن يتقى الله ويخافه . وقيل : إن تقيًا اسم رجل صالح ، فتعوذت منه تعجبًا . وقيل : إنه اسم رجل فاجر معروف فى ذلك الوقت ، والأوّل أولى . وجواب الشرط محذوف ، أى فلا تتعرض لى .

﴿ **قال إنما أنا رسول ربك** ﴾ أى قال لها جبريل : إنما أنا رسول ربك الذى استعذت به ، ولست ممن يتوقع منه ما خطر ببالك من إرادة السوء ﴿ **لأهب لك غلاما زكيا** ﴾ جعل الهبة من قبله لكونه سببا فيها من جهة كون الإعلام لها من جهته، أو من جهة كون النفخ قام به فى الظاهر. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وورش عن نافع « ليهب » على معنى أرسلنى ليهب لك ، وقرأ الباقون بالهمز ، والزكى : الطاهر من الذنوب الذى ينمو على النزاهة والعفة وقيل : المراد بالزكى النبىّ .

﴿**قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر**﴾ أى لم يقربنى زوج ولا غيره ﴿**ولم أك بغيا**﴾ البغى هى : الزانية التى تبغى الرجال . قال المبرد : أصله : بغوى على فعول ، قلبت الواو ياء ثم أدغمت فى الياء وكسرت الغين للمناسبة . وقال ابن جنى : إنه فعيل . وزيادة ذكر كونها لم تك بغيًا مع كون قولها: لم يمسسنى بشر يتناول الحلال والحرام لقصد التأكيد تنزيها لجانبها من الفحشاء . وقيل : ما استبعدت من قدرة الله شيئا ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد هل من قبل زوج تتزوجه فى المستقبل أم يخلقه الله سبحانه ابتداء ؟ وقيل : إن المس عبارة عن النكاح الحلال ، وعلى هذا لا يحتاج إلى بيان وجه قولها : ﴿ **ولم أك بغيا** ﴾ وما ذكرناه من شموله ، أولى باستعمالات أهل اللغة ، وما يوجد فى محاوراتهم مما يطول تعداده. أ.هـ . ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ أى ولنجعل هذا الغلام أو خلقه من غير أب آية للناس يستدلون بها على كمال القدرة ، وهو علة لمعلل محذوف ، والتقدير خلقناه لنجعله ، أو معطوف على علة أخرى مضمرة تتعلق بما يدل عليه قوله سبحانه : ﴿ **هو على هين** ﴾ وجملة ﴿ **قال كذلك قال ربك هو على هين** ﴾

مستأنفة ، والقائل هو الملك ، والكلام فيها كالكلام فيما تقدم من قول زكريا . وقوله : ﴿**ورحمة منا** ﴾ معطوف على آية ، أى ولنجعله رحمة عظيمة كائنة منا للناس لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير ، لأن كل نبى رحمة لأمته ﴿ **وكان أمرا مقضيا** ﴾ أى وكان ذلك المذكور أمرًا مقدرا قد قدره الله سبحانه ، وجف به القلم .

﴿ **فحملته** ﴾ ها هنا كلام مطوى ، والتقدير : فاطمأنت إلى قوله ، فدنا منها ، فنفخ فى جيب درعها ، فوصلت النفخة إلى بطنها فحملته . وقيل : كانت النفخة فى ذيلها . وقيل : فى فمها . قيل : إن وضعها كان متصلا بهذا الحمل من غير مضى مدة الحمل ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ **فانتبذت به مكانا قصيا** ﴾ أى تنحت واعتزلت إلى مكان بعيد ، والقصى هو البعيد . قيل : كان هذا المكان وراء الجبل ، وقيل : أبعد مكان فى تلك الدار . وقيل : أقصى الوادى . وقيل : إنها حملت به ستة أشهر . وقيل : ثمانية أشهر وقيل: سبعة ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة** ﴾ أى ألجأها واضطرها ، ومنه قول زهير :

أجاءته المخافة والرجاء

وقرأ شبل : « فاجأها » من المفاجأة ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، وقرأ الحسن بغير همز ، وفى مصحف أبى : « فلما أجاءها » قال فى الكشاف : إن « أجاءها » منقول من جاء ، إلا أن استعماله قد تعين بعد النقل إلى معنى الإلجاء ، وفيه بعد ، والظاهر أن كل واحد من الفعلين موضوع بوضع مستقل والمخاض مصدر مخضت المرأة تمخض مخضًا ومخاضا إذا دنا ولادها . وقرأ الجمهور بفتح الميم . وقرأ ابن كثير بكسرها ، والجذع :ساق النخلة اليابسة ، كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق بشىء مما تجده عندها ، والتعريف إما للجنس أو للعهد ﴿ **قالت يا ليتنى مت قبل هذا** ﴾ أى قبل هذا الوقت ، تمنت الموت لأنها خافت أن يظن بها السوء فى دينها ، أو لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان ﴿ **وكنت نسيا** ﴾ النسى فى كلام العرب : الشىء الحقير الذى من شأنه أن يُنسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل ، ومنه قول الكميت :

أتجعلنا خسرًا لكلب قضاعة ولسنا بنسى فى معدّ ولا دخل

وقال الفراء : النسى : ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها ، فتقول مريم : ﴿ **نسيا منسيا**﴾ أى حيضة ملقاة ، وقد قرئ بفتح النون وكسرها ، وهما لغتان مثل الحجر والحجر ، والوتر والوتر . وقرأ محمد بن كعب القرظى : « نساء » بالهمز مع كسر النون . وقرأ نوف البكالى بالهمز مع فتح النون . وقرأ بكر بن حبيب : ﴿ **نسيا** ﴾ بفتح النون وتشديد الياء بدون همز، والمنسى : المتروك الذى لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من الناس ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ أى جبريل لما سمع قولها ، وكان أسفل منها تحت الأكمة . وقيل : تحت النخلة . وقيل : المنادى هو عيسى ، وقد قرئ بفتح الميم من ﴿ **من** ﴾ وكسرها . وقوله : ﴿ **ألا تحزنى** ﴾ تفسير للنداء ، أى لا تحزنى

أو بمعنى بأن لا تحزنى على أنها المصدرية ﴿**قد جعل ربك تحتك سريا**﴾ قال جمهور من المفسرين: السرىّ : النهر الصغير ، والمعنى : قد جعل ربك تحت قدمك نهرًا. قيل : كان نهرًا قد انقطع عنه الماء ، فأرسل الله فيه الماء لمريم ، وأحيا به ذلك الجذع اليابس الذى اعتمدت عليه حتى أورق وأثمر . وقيل : المراد بالسرى هنا : عيسى ، والسرىّ : العظيم من الرجال ؛ ومنه قولهم : فلان سرى ، أى عظيم ، ومن قوم سراة ، أى عظام .

﴿ **وهزى إليك بجزع النخلة** ﴾ الهز : التحريك ، يقال : هزه فاهتز ، والباء فى بجذع النخلة مزيدة للتوكيد . وقال الفراء : العرب تقول هزه وهزبه ، والجذع هو : أسفل الشجرة . قال قطرب : كل خشبة فى أصل شجرة فهى جذع ، ومعنى إليك : إلى جهتك ، وأصل تساقط : تتساقط ، فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة والأعمش ﴿ **تساقط** ﴾ مخففًا . وقرأ عاصم فى رواية حفص والحسن بضم التاء مع التخفيف وكسر القاف . وقرئ : « تتساقط » بإظهار التاءين . وقرئ بالتحتية مع تشديد السين . وقرئ « تسقط ، ويسقط » وقرأ الباقون بإدغام التاء فى السين ، فمن قرأ بالفوقية جعل الضمير للنخلة ، ومن قرأ بالتحتية جعل الضمير للجذع؛ وانتصاب ﴿**رطبا**﴾ على بعض هذه القراءات للتمييز ، وعلى البعض الآخر على المفعولية لتساقط . قال المبرد والأخفش : يجوز انتصاب رطبًا بهزى :أى هزى إليك رطبًا ﴿ **جنيا** ﴾ بجذع النخلة ، أى على جذعها وضعفه الزمخشرى ، والجنى: المأخوذ طريًا . وقيل : هو ما طاب وصلح للاجتناء ، وهو فعيل بمعنى مفعول . قال الفراء : الجنى والمجنى واحد . وقيل : هو فعيل بمعنى فاعل ، أى رطبًا طريا طيبا .

﴿ **فكلى واشربى** ﴾ أى من ذلك الرطب وذلك الماء ، أو من الرطب وعصيره ، وقدم الأكل مع أن ذكر النهر مقدم على الرطب ، لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء ، ثم قال : ﴿ **وقرى عينا** ﴾ قرأ الجمهور بفتح القاف . وحكى ابن جرير أنه قرئ بكسرها قال : وهى لغة نجد . والمعنى : طيبى نفسًا وارفضى عنك الحزن ، وهو مأخوذ من القرّ والقرة وهما البرد ، والمسرور : بارد القلب ساكن الجوارح . وقيل : المعنى : وقرى عينًا برؤية الولد الموهوب لك . وقال الشيبانى : معناه : نامى . قال أبو عمرو : أقر الله عينه ، أى أنام عينه وأذهب سهره ﴿ **فإما ترين من البشر أحدا** ﴾ أصله : ترأيين : مثل تسمعين خففت الهمزة وسقطت النون للجزم وياء الضمير للساكنين بعد لحوق نون التوكيد ، ومثل هذا مع عدم لحوق نون التوكيد قول ابن دريد :

أما ترى رأسى حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى

وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « ترين » بسكون الياء وفتح النون مخففة . قال أبو الفتح : وهى شاذة ، وجواب الشرط ﴿ **فقولى إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ أى قولى إن طلب منك الكلام أحد من الناس : إنى نذرت للرحمن صومًا أى صمتا. وقيل: المراد به: الصوم الشرعى،

وهو الإمساك عن المفطرات، والأوّل أولى. وفى قراءة أبىّ: « إنى نذرت للرحمن صومًا صمتًا » بالجمع بين اللفظين ، وكذا روى عن أنس . وروى عنه أنه قرأ : « صومًا وصمتًا » بالواو ، والذى عليه جمهور المفسرين أن الصوم هنا الصمت ، ويدل عليه ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ ومعنى الصوم فى اللغة أوسع من المعنيين . قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم . وقراءة أبىّ تدل على أن المراد بالصوم هنا : الصمت ، لأنه تفسير للصوم . وقراءة أنس تدل على أن الصوم هنا غير الصمت كما تفيده الواو ومعنى ﴿ **فلن أكلم اليوم إنسيا** ﴾ أنها لا تكلم أحدا من الإنس بعد إخبارهم بهذا الخبر ، بل إنما تكلم الملائكة وتناجى ربها . وقيل : إنها لم تخبرهم هنا باللفظ ، بل بالإشارة المفيدة للنذر .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **انتبذت من أهلها مكانا شرقيا** ﴾ قال: مكانًا أظلها الشمس أن يراها أحد منهم . وأخرج الفريابى وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة ، لأن مريم اتخذت من أهلها مكانًا شرقيًا ، فاتخذوا ميلاده قبلة ، وإنما سجدت اليهود على حرف حين نتق فوقهم الجبل ، فجعلوا ينحرفون وهم ينظرون إليه ، يتخوّفون أن يقع عليهم ، فسجدوا سجدة رضيها اللّه ، فاتخذوها سنة . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء وابن عساكر من طريق السدّى عن أبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود قالا : خرجت مريم بنت عمران إلى جانب المحراب لحيض أصابها ، فلما طهرت إذا هى برجل معها ﴿ **فتمثل لها بشرا** ﴾ ففزعت و ﴿ **قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ فخرجت وعليها جلبابها ، فأخذ بكمها فنفخ فى جنب درعها ، وكان مشقوقًا من قدامها ، فدخلت النفخة صدرها فحملت ، فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت الباب التزمتها ، فقالت امرأة زكريا : يا مريم أشعرت أنى حبلى ، قالت مريم : أشعرت أنى حبلى ، فقالت امرأة زكريا : فإنى وجدت ما فى بطنى سجد للذى فى بطنك ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **مصدقا بكلمة من الله** ﴾ فولدت امرأة زكريا يحيى ، ولما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب ﴿ **فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا** ﴾ الآية ﴿ **فناداها** ﴾ جبريل ﴿ **من تحتها ألا تحزنى** ﴾ فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بنى إسرائيل أن مريم ولدت ، فلما أرادوها على الكلام أشارت إلى عيسى فتكلم فقال : ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب** ﴾ الآيات ، ولما ولد لم يبق فى الأرض صنم إلا خرّ لوجهه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى مريم قال : حين حملت وضعت . وأخرج ابن عساكر عنه قال : وضعت لثمانية أشهر . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾ قال : جبريل . وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء نحوه أيضًا. وأخرج ابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وابن عساكر عن أبى بن كعب فى الآية قال : تمثل لها روح عيسى فى صورة بشر فحملته ، قال : حملت الذى

خاطبها ، دخل فى فيها . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **مكانا قصيا** ﴾ قال : نائيًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **إلى جذع النخلة** ﴾ قال : كان جذعا يابسا . وأخرج ابن جرير وابن المنذرعنه أيضا فى قوله : ﴿ **وكنت نسيا منسيا**﴾ قال : لم أخلق ولم أك شيئًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة ﴿**وكنت نسيا منسيا** ﴾ قال : حيضة ملقاة. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن نوف البكالى والضحاك مثله .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة فى قوله : ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ قال : الذى ناداها جبريل . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : الذى ناداها من تحتها جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها . وقد اختلفت الروايات عن السلف ، هل هذا المنادى هو جبريل أو عيسى . وأخرج عبد بن حميد عن أبى بكر بن عياش قال : قرأ عاصم ابن أبى النجود ﴿ **فناداها من تحتها** ﴾ بالنصب ، قال : وقال عاصم من قرأ بالنصب فهو عيسى، ومن قرأ بالخفض فهو جبريل . وأخرج الطبرانى وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن السرى الذى قال الله لمريم ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ نهر أخرجه الله لها لتشرب منه» (١) وفى إسناده أيوب بن نهيك الجبلى قال فيه أبو حاتم الرازى : ضعيف ، وقال أبو زرعة: منكر الحديث ، قال أبو فتح الأزدى :متروك الحديث ، وقال الطبرانى بعد إخراج هذا الحديث :إنه غريب جدًا . وأخرج الطبرانى فى الصغير، وابن مردويه عن البراء ابن عازب عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **قد جعل ربك تحتك سريا** ﴾ قال : « النهر » (٢) . وأخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وصححه والحاكم ، وابن مردويه عن البراء قال فى الآية : هو الجدول ، وهو النهر الصغير ، فظهر بهذا أن الموقوف أصح . وقد روى عن جماعة من التابعين أن السرى هو عيسى ، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **رطبا جنيا** ﴾ قال : طريًا . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه في قوله : ﴿ **إني نذرت للرحمن صوما** ﴾ قال : صمتًا . وأخرج عبد بن حميد وابن الأنبارى عنه أنه قرأ : « صومًا صمتًا » .

﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)** ﴾

---

(١) الطبرانى (٣٣٠٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨ : « فيه يحيى بن عبد الله البابلتى وهو ضعيف » .

(٢) قال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٧ : « رواه الطبرانى فى الصغير، وفيه معاوية بن يحيى الصدفى وهو ضعيف».

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ .

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات وفرغت من نفاسها ﴿ **أتت به** ﴾ أى بعيسى ، وجملة : ﴿ **تحمله** ﴾ فى محل نصب على الحال ، وكان إتيانها إليهم من المكان القصى التى انتبذت فيه ، فلما رأوا الولد معها حزنوا ، وكانوا أهل بيت صالحين ﴿ **فقالوا** ﴾ منكرين لذلك ﴿ **يا مريم لقد جئت** ﴾ أى فعلت ﴿ **شيئا فريا** ﴾ قال أبو عبيدة : الفرى : العجيب النادر ، وكذا قال الأخفش . والفرى : القطع ، كأنه مما يخرق العادة ، أو يقطع بكونه عجيبًا نادرًا . وقال قطرب : الفرى : الجديد من الأسقية ، أى جئت بأمر بديع جديد لم تسبقى إليه . وقال سعيد بن مسعدة : الفرى : المختلق المفتعل ، يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد، والولد من الزنا كالشىء المفترى ، قال تعالى: ﴿ ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ [الممتحنة: ١٢] وقال مجاهد : الفرى : العظيم .

﴿ **يا أخت هارون** ﴾ قد وقع الخلاف فى معنى هذه الأخوة ، وفى هارون المذكور من هو ؟ فقيل : هو هارون أخو موسى ، والمعنى : أن من كانت نظنها مثل هارون فى العبادة كيف تأتى بمثل هذا . وقيل : كانت مريم من ولد هارون أخى موسى، فقيل لها: يا أخت هارون ، كما يقال لمن كان من العرب : يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها اسمه هارون . وقيل : هارون هذا رجل صالح فى ذلك الوقت . وقيل : بل كان فى ذلك الوقت رجل فاجر اسمه هارون ، فنسبوها إليه على وجهة التعيير والتوبيخ ، حكاه ابن جرير ولم يسمّ قائله وهو ضعيف ﴿ **ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا** ﴾ هذا فيه تقريرلما تقدم من التعيير والتوبيخ ، وتنبيه على أن الفاحشة من ذرية الصالحين مما لا ينبغى أن تكون .

﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أى إلى عيسى ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام كما تقدّم ، هذا على تقدير أنها كانت إذ ذاك فى أيام نذرها، وعلى تقدير أنها قد خرجت من أيام نذرها ، فيمكن أن يقال : إن اقتصارها على الإشارة للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة ﴿ **قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا**﴾ هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم. قال أبو عبيدة: فى الكلام حشو زائد. والمعنى : كيف نكلم صبيا فى المهد ، كقول الشاعر :

وجيران لنا كانوا كرام

وقال الزجاج : الأجود أن تكون من فى معنى الشرط والجزاء ، والمعنى : من يكون فى المهد صبيا فكيف نكلمه . ورجحه ابن الأنبارى وقال : لا يجوز أن يقال : إن ﴿ **كان** ﴾ زائدة وقد نصبت ﴿ **صبيا** ﴾ ويجاب عنه بأن القائل بزيادتها يجعل الناصب له الفعل ، وهو ﴿**نكلم**﴾ كما سبق تقديره . وقيل : إن ﴿ **كان** ﴾ هنا هى التامة التى بمعنى الحدوث والوجود . وردّ بأنها لو كانت تامة لاستغنت عن الخبر ، والمهد هو : شىء معروف يتخذ لتنويم الصبى . والمعنى :

كيف نكلم من سبيله أن ينوم فى المهد لصغره . وقيل : هو هنا حجر الأم . وقيل : سرير كالمهد ، فلما سمع عيسى كلامهم ﴿ **قال إنى عبد الله** ﴾ فكان أول ما نطق به ، الاعتراف بالعبودية له ﴿ **آتانى الكتاب** ﴾ أى الإنجيل ، أى حكم لى بإيتائى الكتاب والنبوة فى الأزل ، وإن لم يكن قد نزل عليه فى تلك الحال ولا قد صار نبيا . وقيل : إنه آتاه الكتاب وجعله نبيا فى تلك الحال ، وهو بعيد ﴿ **وجعلنى مباركا أين ما كنت** ﴾ أى حيثما كنت ، والبركة أصلها من بروك البعير والمعنى : جعلنى ثابتًا فى دين اللّه . وقيل : البركة هى : الزيادة والعلو ، فكأنه قال: جعلنى فى جميع الأشياء زائدًا عاليًا منجحًا . وقيل : معنى المبارك: النفاع للعباد، وقيل : المعلم للخير . وقيل :الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر .﴿ **وأوصانى بالصلاة** ﴾ أى أمرنى بها ﴿**والزكاة**﴾ زكاة المال ، أو تطهير النفس ﴿ **ما دمت حيا** ﴾ أى مدة دوام حياتى ، وهذه الأفعال الماضية هى من باب تنزيل ما لم يقع منزلة الواقع تنبيهًا على تحقيق وقوعه لكونه قد سبق فى القضاء المبرم .

﴿ **وبرا بوالدتى** ﴾ معطوف على ﴿ **مباركا** ﴾ واقتصر على البرّ بوالدته لأنه قد علم فى تلك الحال أنه لم يكن له أب، وقرئ : « وبرا » بكسر الباء على أنه مصدر وصف به مبالغة ﴿ **ولم يجعلنى جبارا شقيا** ﴾ الجبار: المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقا ، والشقى : العاصى لربه . وقيل : الخائب . وقيل : العاق . ﴿ **والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا** ﴾ قال المفسرون : السلام هنا بمعنى السلامة : أى السلامة على يوم ولدت ، فلم يضرنى الشيطان فى ذلك الوقت ولا أغوانى عند الموت ولا عند البعث . وقيل : المراد به : التحية . قيل : واللام للجنس . وقيل : للعهد ، أى وذلك السلام الموجه إلى يحيى فى هذه المواطن الثلاثة موجه إلى. قيل : إنه لم يتكلم المسيح بعد هذا الكلام حتى بلغ المدة التى تتكلم فيها الصبيان فى العادة .

وقد أخرج سعيد بن منصور وابن عساكر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فأتت به قومها تحمله**﴾ قال : بعد أربعين يومًا بعد ما تعلّت من نفاسها . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال : بعثنى رسول اللّه ﷺ إلى أهل نجران ، فقالوا : أرأيت ما تقرؤون : ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول اللّه ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم ؟ » [1] وهذا التفسير النبوى يغنى عن مائر ما روى عن السلف فى ذلك .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أنس قال: كان عيسى قد درس الإنجيل وأحكامها فى بطن أمه ،

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٨٦٥) وأحمد ٤/٢٥٢ ومسلم فى الآداب (٢١٣٥ /٩) والترمذى فى التفسير (٣١٥٥) وقال : « هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس » والنسائى فى التفسير (٣٣٥) .

فذلك قوله : ﴿ **إنى عبد الله آتانى الكتاب** ﴾ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله : ﴿ **آتانى الكتاب** ﴾ الآية ، قال : قضى أن أكون كذلك . وأخرج الإسماعيلى فى معجمه وأبو نعيم فى الحلية وابن مردويه وابن النجار عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ فى قول عيسى : ﴿ **وجعلنى مباركا أين ما كنت** ﴾ قال : « جعلنى نفاعًا للناس أينما اتجهت » [1] وأخرج ابن عدى وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ **وجعلنى مباركا** ﴾ قال : معلمًا ومؤدبًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولم يجعلنى جبارا شقيا** ﴾ يقول : عصيا .

﴿ **ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)** ﴾ .

الإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى المتصف بالأوصاف السابقة . قال الزجاج : ذلك الذى قال : إنى عبد الله عيسى ابن مريم ، لا ما تقوله النصارى من أنه ابن الله وأنه إله . وقرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب : ﴿ **قول الحق** ﴾ بالنصب . وقرأ الباقون بالرفع . فوجه القراءة الأولى أنه منتصب على المدح ، أو على أنه مصدر مؤكد لقال إنى عبد الله ، قاله الزجاج . ووجه القراءة الثانية أنه نعت لعيسى ، أى ذلك عيسى ابن مريم قول الحقّ ، قاله الكسائى . وسمى قول الحق كما سمى كلمة الله ، والحق هو الله عز وجلّ . وقال أبو حاتم : المعنى : هو قول الحق . وقيل : التقدير : هذا الكلام قول الحق ، وهو من باب إضافة الموصوف إلى الصفة مثل حق اليقين . وقيل : الإضافة للبيان . وقرئ : « قال الحق » وروى ذلك عن ابن مسعود ، وقرأ الحسن : « قول الحق » بضم القاف ، والقول والقول والقال والمقال بمعنى واحد ، و﴿**الذى فيه يمترون**﴾ صفة لعيسى : أى ذلك عيسى ابن مريم الذى فيه يمترون قول الحق ، ومعنى ﴿**يمترون**﴾ : يختلفون ، على أنه من المماراة ، أو يشكون على أنه من المرية . وقد وقع الاختلاف فى عيسى ؛ فقالت اليهود : هو ساحر . وقالت النصارى : هو ابن الله .

﴿ **ما كان لله أن يتخذ من ولد** ﴾ أى ما صح ولا استقام ذلك ، فـ « أن » فى محل رفع

---

(١) أبو نعيم فى الحلية ٣/ ٢٥ وقال : « غريب من حديث يونس تفرد به هشيم وعنه شعيب » .

على أنها اسم كان . قال الزجاج : « من » في ﴿ **من ولد** ﴾ مؤكدة تدل على نفى الواحد والجماعة ؛ ثم نزه سبحانه نفسه فقال : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزه وتقدس عن مقالتهم هذه ؛ ثم صرح سبحانه بما هو شأنه ـ تعالى سلطانه ـ فقال : ﴿ **إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أى إذا قضى أمرًا من الأمور فيكون حينئذ بلا تأخير . وقد سبق الكلام على هذا مستوفى فى البقرة ، وفى إيراده فى هذا الموضوع تبكيت عظيم للنصارى، أى من كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ ﴿ **وأن الله ربى وربكم فاعبدوه** ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح «أن ». وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة بكسرها ، وهو من تمام كلام عيسى، وقرأ أبيّ : « إن اللّه » بغير واو ، قال الخليل وسيبويه : فى توجيه قراءة النصب بأن المعنى : ولأن اللّه ربى وربكم ، وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض عطفًا على الصلاة ، وجوز أبو عمرو بن العلاء عطفه على ﴿ **أمرا** ﴾ . ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى هذا الذى ذكرته لكم من أنه ربى وربكم ، هو الطريق القيم الذى لا اعوجاج فيه ولا يضل سالكه .

﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾: « من » زائدة للتوكيد ، والأحزاب: اليهود والنصارى ، أى فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى ، فاليهود قالوا : إنه ساحر ، كما تقدّم ، وقالوا : إنه ابن يوسف النجار . والنصارى اختلفت فرقهم فيه ، فقالت النسطورية منهم : هو ابن اللّه . وقالت الملكانية : هو ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو اللّه تعالى ، فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصرت ﴿ **فويل للذين كفروا** ﴾ وهم المختلفون فى أمره ﴿**من مشهد يوم عظيم** ﴾ أى من شهود يوم القيامة وما يجرى فيه من الحساب والعقاب ، أو من مكان الشهود فيه ، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم . وقيل : المعنى : فويل لهم من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور .

﴿ **أسمع بهم وأبصر** ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب ، فيقولون: أسمع بزيد وأبصر به ، أى ما أسمعه وأبصره ، فعجب اللّه سبحانه نبيه ﷺ منهم ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ أى للحساب والجزاء ﴿ **لكن الظالمون اليوم** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **فى ضلال مبين** ﴾ أى واضح ظاهر ، ولكنهم أغفلوا التفكر ، والاعتبار والنظر فى الآثار . ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة**﴾ أى يوم يتحسرون جميعًا ، فالمسيء على إساءته ، والمحسن على عدم استكثاره من الخير ﴿ **إذ قضى الأمر** ﴾ أى فرغ من الحساب وطويت الصحف ، وصار أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار ، وجملة : ﴿ **وهم فى غفلة** ﴾ فى محل نصب على الحال : أى غافلين عما يعمل بهم ، وكذلك جملة ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ فى محل نصب على الحال ﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها** ﴾ أي نميت سكانها فلا يبقى بها أحد يرث الأموات ، فكأنه سبحانه ورث الأرض ومن عليها حيث أماتهم جميعًا ﴿ **وإلينا يرجعون** ﴾ أى يردون إلينا يوم القيامة فنجازى كلا بعمله ، وقد تقدّم مثل هذا فى سورة الحجر .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **قول الحق** ﴾ قال : اللّه الحقّ

عز وجلّ . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عنه في قوله : ﴿ **الذى فيه يمترون** ﴾ قال : اجتمع بنو إسرائيل وأخرجوا منهم أربعة نفر من كل قوم عالمهم ،فامتروا فى عيسى حين رفع ، فقال أحدهم : هو اللّه هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا ، وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء ، وهم اليعقوبية ؛ فقالت الثلاثة :كذبت ؛ ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، فقال: هو ابن اللّه ، وهم النسطورية ؛ فقال اثنان : كذبت ؛ ثم قال أحد الاثنين للآخر : قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، اللّه إله ، وعيسى إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ، وهم ملوك النصارى ؛ فقال الرابع : كذبت ، هو عبد اللّه ورسوله وروحه من كلمته ، وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا ، فظهروا على المسلمين ، فذلك قول اللّه سبحانه : ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ [آل عمران : ٢١] قال قتادة : وهم الذين قال اللّه : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ قال : اختلفوا فيه فصاروا أحزابًا ، فاختصم القوم ، فقال المرء المسلم : أنشدكم باللّه هل تعلمون أن عيسى كان يطعم الطعام وأن اللّه لا يطعم ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : فهل تعلمون أن عيسى كان ينام وأن اللّه لا ينام ؟ قالوا : اللهم نعم ، فخصمهم المسلمون فاقتتل القوم ، فذكر لنا أن اليعقوبية ظهرت يومئذ وأصيب المسلمون ، فأنزل الله : ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم** ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أسمع بهم وأبصر**﴾ يقول الكفار يومئذ : أسمع شيء وأبصره ، وهم اليوم لا يسمعون ولا يبصرون . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **يوم يأتوننا** ﴾ قال : ذلك يوم القيامة . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، يجاء بالموت كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا أهل الجنة ، هل تعرفون هذا ؟ فيشرئبون وينظرون ، فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى : يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون إليه ، فيقولون : نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيؤمر به فيذبح ويقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » ، ثم قرأ رسول اللّه ﷺ : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة** ﴾ الآية ، وأشار بيده وقال : «أهل الدنيا فى غفلة » [(١)] . وأخرج النسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعًا نحوه [(٢)]. وأخرج ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال: يوم الحسرة : هو من أسماء يوم القيامة ، وقرأ : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ﴾ [الزمر : ٥٦] وعلى هذا ضعيف ، والآية التى استدل بها ابن عباس لا تدل على المطلوب لا بمطابقة ولا تضمن ولا التزام .

---

(١) البخارى فى التفسير (٤٧٣٠) ومسلم فى الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٩/ ٤٠) والترمذى فى التفسير (٣١٥٦) وقال: « حسن صحيح » .

(٢) النسائى فى التفسير (٣٣٦) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **واذكر** ﴾ معطوف على « وأنذر » والمراد بذكر الرسول إياه فى الكتاب : أن يتلو ذلك على الناس كقوله : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ [الشعراء: ٦٩] ، وجملة : ﴿**إنه كان صديقا نبيا** ﴾ تعليل لما تقدّم من الأمر لرسول الله ﷺ بأن يذكره، وهى معترضة ما بين البدل والمبدل منه، والصديق: كثير الصدق ، وانتصاب ﴿ **نبيا** ﴾ على أنه خبر آخر لكان ، أى اذكر إبراهيم الجامع لهذين الوصفين ، و ﴿ **إذ قال لأبيه** ﴾ بدل اشتمال من إبراهيم ، وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث للمبالغة ، وأبو إبراهيم هو آزر على ما تقدم تقريره ، والتاء فى ﴿ **يا أبت** ﴾ عوض عن الياء ، ولهذا لا يجتمعان ، والاستفهام فى ﴿**لم تعبد** ﴾ للإنكار والتوبيخ ﴿ **ما لا يسمع** ﴾ ما تقوله من الثناء عليه والدعاء له ﴿ **ولا يبصر** ﴾ ما تفعله من عبادته ومن الأفعال التى تفعلها مريدًا بها الثواب ، ويجوز أن يحمل نفى السمع والإبصار على ما هو أعم من ذلك ، أى لا يسمع شيئًا من المسموعات ، ولا يبصر شيئًا من المبصرات ﴿ **ولا يغنى عنك شيئا** ﴾ من الأشياء ، فلا يجلب لك نفعًا ولا يدفع عنك ضررًا ، وهى الأصنام التى كان يعبدها آزر ، أورد إبراهيم عليه السلام على أبيه الدلائل والنصائح ، وصدر كلا منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه ، وامتثالا لأمر ربه .

ثم كرر دعوته إلى الحق فقال : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك** ﴾ فأخبر أنه قد وصل إليه من العلم نصيب لم يصل إلى أبيه ، وأنه قد تجدد له حصول ما يتوصل به منه إلى الحق، ويقتدر به على إرشاد الضال ، ولهذا أمره باتباعه فقال : ﴿ **فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ مستويا موصلا إلى المطلوب منجيًا من المكروه . ثم أكد ذلك بنصيحة أخرى زاجرة له عما هو فيه فقال : ﴿ **يا أبت لا تعبد الشيطان** ﴾ أى لا تطعه ، فإن عبادة الأصنام هى من طاعة الشيطان ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن الشيطان كان للرحمن عصيا** ﴾ حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، ومن أطاع من هو عاص لله سبحانه فهو عاص لله ، والعاصى حقيق بأن تسلب عنه النعم وتحلّ به النقم . قال الكسائى : العصى والعاصى بمعنى واحد .

ثم بين له الباعث على هذه النصائح فقال : ﴿ **يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن** ﴾ قال الفراء : معنى أخاف هنا : أعلم . وقال الأكثرون : إن الخوف هنا محمول على ظاهره، لأن إبراهيم غير جازم بموت أبيه على الكفر ، إذ لو كان جازمًا بذلك لم يشتغل بنصحه، ومعنى الخوف على الغير : هو أن يظن وصول الضرر إلى ذلك الغير ﴿ **فتكون للشيطان وليا** ﴾ أى إنك إذا أطعت الشيطان كنت معه فى النار واللعنة ، فتكون بهذا السبب مواليًا ، أو تكون بسبب موالاته فى العذاب معه ، وليس هناك ولاية حقيقية لقوله سبحانه: ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ﴾ [الزخرف: ٦٧] . وقيل : الولى بمعنى التالى . وقيل : الولىّ بمعنى القريب ، أى تكون للشيطان قريبًا منه فى النار ، فلما مرّت هذه النصائح النافعة والمواعظ المقبولة بسمع آزر قابلها بالغلظة والفظاظة والقسوة فقال :﴿ **أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم** ﴾ والاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب ، والمعنى : أمعرض أنت عن ذلك ومنصرف إلى غيره ؟ ثم توعده فقال : ﴿ **لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾ أى بالحجارة . وقيل : باللسان ، فيكون معناه لأشتمنك. وقيل : معناه لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك ﴿**واهجرنى مليا** ﴾ أى زمانًا طويلا. قال الكسائى : يقال : هجرته مليا وملوة وملاوة ، بمعنى الملاوة من الزمان ، وهو الطويل ، ومنه قول مهلهل :

فتصدّعت صمّ الجبال لموته وبكت عليه المرملات مليا

وقيل : معناه : اعتزلنى سالم العرض لا تصيبك منى معرة ، واختار هذا ابن جرير ، فمليا على هذا منتصب على الحال من إبراهيم ، وعلى القول الأوّل منتصب على الظرفية ، فلما رأى إبراهيم إصرار أبيه على العناد ﴿ **قال سلام عليك** ﴾ أى تحية توديع ومتاركة كقوله : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [الفرقان : ٦٣] . وقيل : معناه : أمنة منى لك ، قاله ابن جرير . وإنما أمنه مع كفره لأنه لم يؤمر بقتاله ، والأول أولى ، وبه قال الجمهور. وقيل : معناه الدعاء له بالسلامة ، استمالة له ورفقًا به ثم وعده بأن يطلب له المغفرة من الله سبحانه تألفًا له وطمعًا فى لينه وذهاب قسوته :

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وكان منه هذا الوعد قبل أن يعلم أنه يموت على الكفر ، وتحق عليه الكلمة ، ولهذا قال الله سبحانه فى موضع آخر : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ بعد قوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : ١١٤] وجملة : ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ تعليل لما قبلها ؛ والمعنى سأطلب لك المغفرة من الله ، فإنه كان بى كثير البرّ واللطف، يقال :حفى به وتحفى : إذا بره . قال الكسائى :يقال :حفى بى حفاوة وحفوة . وقال الفراء : إنه كان بى حفيًا ، أى عالمًا لطيفًا يجيبنى إذا دعوته .

ثم صرح الخليل بما تضمنه سلامه من التوديع والمتاركة فقال : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله** ﴾ أى أهاجر بدينى عنكم وعن معبوداتكم حيث لم تقبلوا نصحى ولا نجعت فيكم دعوتى ﴿**وأدعو ربى**﴾ وحده ﴿ **عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾ أى خائبًا . وقيل : عاصيًا. قيل : أراد بهذا الدعاء : هو أن يهب الله له ولدًا وأهلا يستأنس بهم فى اعتزاله ويطمأن إليهم عند وحشته . وقيل : أراد دعاءه لأبيه بالهداية ، وعسى للشك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ، والأول أولى لقوله : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ أى جعلنا هؤلاء الموهوبين له ، أهلا وولدًا بدل الأهل الذين فارقهم ﴿ **وكلا جعلنا نبيا** ﴾ أى كل واحد منهما، وانتصاب ﴿ **كلا** ﴾ على أنه المفعول الأول لجعلنا قدّم عليه للتخصيص ، لكن بالنسبة إليهم أنفسهم لا بالنسبة إلى من عداهم ، أى كل واحد منهم جعلنا نبيا ، لا بعضهم دون بعض .

﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا** ﴾ بأن جعلناهم أنبياء ، وذكر هذا بعد التصريح بجعلهم أنبياء لبيان أن النبوة هى من باب الرحمة . وقيل : المراد بالرحمة هنا : المال . وقيل : الأولاد . وقيل : الكتاب ، ولا يبعد أن يندرج تحتها جميع هذه الأمور ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾ لسان الصدق : الثناء الحسن ، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به كما عبر باليد عن العطية . وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلوّ للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لأرجمنك** ﴾ قال : لأشتمنك ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ قال : حينًا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه ﴿**واهجرنى مليا** ﴾ قال : اجتنبنى سويا . وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضًا فى الآية قال : اجتنبنى سالمًا قبل أن تصيبك منى عقوبة. وأخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير وعكرمة: ﴿**مليا** ﴾ : دهرًا . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة قال : سالمًا . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ قال: لطيفًا. وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب** ﴾ قال : يقول: وهبنا له إسحاق ويعقوب ابن ابنه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ **وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾ قال : الثناء الحسن .

﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**

﴿٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾ .

قفّى سبحانه قصة إبراهيم بقصة موسى لأنه تلاه فى الشرف، وقدمه على إسماعيل لئلا يفصل بينه وبين ذكر يعقوب ، أى واقرأ عليهم من القرآن قصة موسى ﴿ **إنه كان مخلصا** ﴾ قرأ أهل الكوفة بفتح اللام ، أى جعلناه مختارًا وأخلصناه . وقرأ الباقون بكسرها ، أى أخلص العبادة والتوحيد لله غير مراء للعباد ﴿ **إنه كان رسولا نبيا** ﴾ أى أرسله الله إلى عباده فأنبأهم عن الله بشرائعه التى شرعها لهم ، فهذا وجه ذكر النبى بعد الرسول مع استلزام الرسالة للنبوة، فكأنه أراد بالرسول معناه اللغوى لا الشرعى ، والله أعلم . وقال النيسابورى : الرسول الذى معه كتاب من الأنبياء ، والنبى الذى ينبئ عن الله عز وجل. وإن لم يكن معه كتاب ، وكان المناسب ذكر الأعم قبل الأخص ، إلا أن رعاية الفاصلة اقتضت عكس ذلك كقوله فى طه: ﴿رب هارون وموسى ﴾ [طه : ٧٠] انتهى .

﴿**وناديناه من جانب الطور الأيمن**﴾ أى كلمناه من جانب الطور، وهو جبل بين مصر ومدين اسمه زبير ، ومعنى الأيمن : أنه كان ذلك الجانب عن يمين موسى ، فإن الشجرة كانت فى ذلك الجانب والنداء وقع منها ، وليس المراد : يمين الجبل نفسه . فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . وقيل : معنى الأيمن : الميمون ، ومعنى النداء : أنه تمثل له الكلام من ذلك الجانب ﴿ **وقربناه نجيا** ﴾ أى أدنيناه بتقريب المنزلة حتى كلمناه ، والنجى بمعنى المناجى كالجليس والنديم ، فالتقريب هنا هو تقريب التشريف والإكرام ، مثلت حاله بحال من قربه منه الملك لمناجاته . قال الزجاج : قربه فى المنزلة حتى سمع مناجاته . وقيل : إن الله سبحانه رفعه حتى سمع صريف القلم . روى هذا عن بعض السلف .

﴿ **ووهبنا له من رحمتنا** ﴾ أى من نعمتنا ، وقيل : من أجل رحمتنا ، و﴿ **هارون** ﴾ عطف بيان ، و﴿ **نبيا** ﴾ حال منه ، وذلك حين سأل ربه قال : ﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى. هارون أخى ﴾ [طه : ٢٩ ، ٣٠] . ووصف الله سبحانه إسماعيل بصدق الوعد مع كون جميع الأنبياء كذلك، لأنه كان مشهورًا بذلك مبالغًا فيه، وناهيك بأنه وعد الصبر من نفسه على الذبح فوفى بذلك، وكان ينتظر لمن وعده بوعد الأيام والليالى، حتى قيل : إنه انتظر لبعض من وعده حولا . والمراد بإسماعيل هنا : هو إسماعيل بن إبراهيم ، ولم يخالف فى ذلك إلا من لا يعتد به فقال :

هو إسماعيل بن حزقيل ، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره الله فيما شاء من عذابهم ، فاستعفاه ورضى بثوابه . وقد استدل بقوله تعالى فى إسماعيل : ﴿**وكان رسولا نبيا**﴾ على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته . وقيل : إنه وصفه بالرسالة لكون إبراهيم أرسله إلى جرهم ﴿ **وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة** ﴾ قيل : المراد بأهله هنا أمته. وقيل: جرهم ، وقيل : عشيرته كما فى قوله : ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]. والمراد بالصلاة والزكاة هنا: هما العباداتان الشرعيتان ويجوز أن يراد: معناهما اللغوى ﴿ **وكان عند ربه مرضيا** ﴾ أى رضيا زاكيًا صالحًا. قال الكسائى والفراء : من قال مرضى؛ بنى على رضيت ، قالا: وأهل الحجاز يقولون مرضوّ .

﴿ **واذكر فى الكتاب إدريس** ﴾ اسم إدريس أخنوخ ، قيل : هو جد نوح ، فإن نوحًا هو ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ ، وعلى هذا فيكون جد أبى نوح .ذكره الثعلبى وغيره . وقد قيل : إن هذا خطأ ، وامتناع إدريس للعجمة والعلمية . وهو أول من خط بالقلم ونظر فى النجوم والحساب ، وأول من خاط الثياب . قيل : وهو أول من أعطى النبوّة من بنى آدم . وقد اختلف فى معنى قوله: ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ فقيل : إن الله رفعه إلى السماء الرابعة. وقيل : إلى السادسة . وقيل: إلى الثانية ، وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث الإسراء وفيه : ومنهم إدريس فى الثانية [1] ، وهو غلط من رواية شريك بن عبد الله بن أبى نمر . والصحيح أنه فى السماء الرابعة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أنس بن مالك عن النبىّ [2] وقيل: إن المراد برفعه مكانًا عليا : ما أعطيه من شرف النبوّة . وقيل : إنه رفع إلى الجنة .

﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين** ﴾ الإشارة إلى المذكورين من أول السورة إلى هنا، والموصول صفته، و﴿ **من النبيين** ﴾ بيان للموصول ، و﴿ **من ذرية آدم** ﴾ بدل منه بإعادة الخافض. وقيل : إن « من » فى ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ للتبعيض ﴿ **وممن حملنا مع نوح** ﴾ أى من ذرية من حملنا معه وهم من عدا إدريس ، فإن إبراهيم كان من ذرية سام بن نوح ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ وهم الباقون ﴿ **وإسرائيل** ﴾ أى ومن ذرية إسرائيل ، ومنهم موسى وهارون ويحيى وعيسى . وقيل : إنه أراد بقوله : ﴿ **من ذرية آدم** ﴾ إدريس وحده ، وأراد بقوله : ﴿**وممن حملنا مع نوح**﴾ إبراهيم وحده، وأراد بقوله: ﴿ **ومن ذرية إبراهيم** ﴾ إسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وأراد بقوله : ﴿ **ومن ذرية إسرائيل** ﴾ موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿ **وممن هدينا** ﴾ أى من جملة من هدينا إلى الإسلام ﴿ **واجتبينا** ﴾ بالإيمان ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ وهذا خبر لأولئك ، ويجوز أن يكون الخبر هو ﴿ **الذين أنعم الله عليهم** ﴾ وهذا استئناف لبيان خشوعهم لله وخشيتهم منه. وقد تقدم فى سبحان بيان معنى خرّوا سجدًا : يقال : بكى يبكى

---

(١) البخارى فى الأنبياء (٣٣٤٢) .

(٢) مسلم فى الإيمان (١٦٢/ ٢٥٩) .

بكاء وبكيا . قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ، أى ليس معه صوت ، ومنه قول الشاعر :

بكت عينى وحق لها بكاها وما يغنى البكاء ولا العويل

و﴿ **سجدا** ﴾ منصوب على الحال. قال الزجاج: قد بين الله أن الأنبياء إذا سمعوا آيات الله بكوا وسجدوا ، وقد استدل بهذه الآية على مشروعية سجود التلاوة .

ولما مدح هؤلاء الأنبياء بهذه الأوصاف ترغيبًا لغيرهم فى الاقتداء بهم وسلوك طريقتهم ذكر أضدادهم تنفيرًا للناس عن طريقتهم فقال : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ أى عقب سوء . قال أهل اللغة : يقال لعقب الخير : خلف بفتح اللام ، ولعقب الشر : خلف بسكون اللام ، وقد قدمنا الكلام على هذا فى آخر الأعراف ﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ قال الأكثر : معنى ذلك أنهم أخروها عن وقتها . وقيل : أضاعوا الوقت . وقيل : كفروا بها وجحدوا وجوبها . وقيل : لم يأتوا بها على الوجه المشروع . والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضًا من فروضها أو شرطًا من شروطها أو ركنًا من أركانها فقد أضاعها ، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو أحدها دخولا أوليا. واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقيل : فى اليهود. وقيل : فى النصارى. وقيل : فى قوم من أمة محمد ﷺ يأتون فى آخر الزمان ، ومعنى ﴿**واتبعوا الشهوات** ﴾ أى فعلوا ما تشتهيه أنفسهم وترغب إليه من المحرمات كشرب الخمر والزنا ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ الغى : هو الشر عند أهل اللغة ، كما أن الخير : هو الرشاد ، والمعنى : أنهم سيلقون شرا لا خيرا . وقيل : الغىّ : الضلال ، وقيل : الخيبة . وقيل : هو اسم وادٍ فى جهنم . وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : سيلقون جزاء الغىّ ، كذا قال الزجاج ، ومثله قوله سبحانه : ﴿ يلق أثاما ﴾ [الفرقان : ٦٨] . أى جزاء أثام .

﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ أى تاب مما فرط منه من تضييع الصلوات واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملا صالحًا ، وفى هذا الاستثناء دليل على أن الآية فى الكفرة لا فى المسلمين ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة** ﴾ قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر :« يدخلون » بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء ﴿ **ولا يظلمون شيئا** ﴾ أى لا ينقص من أجورهم شىء وإن كان قليلا، فإن الله سبحانه يوفى إليهم أجورهم . وانتصاب ﴿ **جنات عدن** ﴾ على البدل من الجنة ، بدل البعض لكون جنات عدن بعض من الجنة . قال الزجاج : ويجوز « جنات عدن » بالرفع على الابتداء، وقرئ كذلك . قال أبو حاتم: لولا الخط لكان جنة عدن ، يعنى: بالإفراد ، مكان الجمع وليس هذا بشىء ، فإن الجنة اسم لمجموع الجنات التى هى بمنزلة الأنواع للجنس . وقرئ بنصب الجنات على المدح ، وقد قرئ جنة بالإفراد ﴿ **التى وعد الرحمن عباده بالغيب** ﴾ هذه الجملة صفة لجنات عدن و ﴿ **بالغيب** ﴾ فى محل نصب على الحال من الجنات ، أو من عباده ، أى متلبسة،

أو متلبسين بالغيب ، وقرئ : بصرف عدن ، ومنعها على أنها علم لمعنى العدن وهو الإقامة ، أو علم لأرض الجنة ﴿ **إنه كان وعده مأتيا** ﴾ أى موعوده على العموم ، فتدخل فيه الجنات دخولا أوليا . قال الفراء : لم يقل آتيًا ، لأن كل ما أتاك فقد آتيته ، وكذا قال الزجاج .

﴿ **لا يسمعون فيها لغوا** ﴾ هو الهذر من الكلام الذى يلغى ولا طائل تحته ، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم، وقيل :اللغو: كل ما لم يكن فيه ذكر الله ﴿ **إلا سلاما** ﴾ هو استثناء منقطع : أى سلام بعضهم على بعض ، أو سلام الملائكة عليهم . وقال الزجاج : السلام اسم جامع للخير ، لأنه يتضمن السلامة ، والمعنى : أن أهل الجنة لا يسمعون ما يؤلمهم وإنما يسمعون ما يسلمهم ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا** ﴾ قال المفسرون : ليس فى الجنة بكرة ولا عشية ، ولكنهم يؤتون رزقهم على مقدار ما يعرفون من الغداء والعشاء ﴿ **تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوالها نورثها من كان من أهل التقوى كما يبقى على الوارث مال موروثه. قرأ يعقوب : « نورث » بفتح الواو وتشديد الراء ، وقرأ الباقون بالتخفيف. وقيل : فى الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : نورث من كان تقيا من عبادنا .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وكان رسولا نبيا** ﴾ قال : النبىّ الذى يكلم وينزل عليه ولا يرسل . ولفظ ابن أبى حاتم : الأنبياء الذين ليسوا برسل : يوحى إلى أحدهم ولا يرسل إلى أحد. والرسل: الأنبياء الذين يوحى إليهم ويرسلون. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿**جانب الطور الأيمن** ﴾ قال : جانب الجبل الأيمن ﴿ **وقربناه نجيا** ﴾ قال : نجا بصدقه . وأخرج عبد بن حميد عن أبى العالية قال : قربه حتى سمع صريف القلم ، يكتب فى اللوح . وأخرجه الديلمى عنه مرفوعًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون** ﴾ قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن إنما وهب له نبوته .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ورفعناه مكانا عليا** ﴾ قال :كان إدريس خياطا وكان لا يغرز غرزة إلا قال :سبحان الله ، وكان يمسى حين يمسى وليس على الأرض أفضل عملا منه ، فاستأذن ملك من الملائكة ربه فقال : يارب ائذن لى فأهبط إلى إدريس ، فأذن له فأتى إدريس فقال : إنى جئتك لأخدمك ، قال : كيف تخدمنى وأنت ملك وأنا إنسان ؟ ثم قال إدريس : هل بينك وبين ملك الموت شىء ؟ قال الملك : ذاك أخى من الملائكة ، قال : هل تستطيع أن تنفعنى ؟ قال: أما يؤخر شيئًا أو يقدمه فلا، ولكن سأكلمه لك فيرفق بك عند الموت، فقال : اركب بين جناحى ، فركب إدريس فصعد إلى السماء العليا فلقى ملك الموت وإدريس بين جناحيه ، فقال له الملك : إن لى إليك حاجة ، قال : علمت حاجتك تكلمنى فى إدريس وقد محى اسمه من الصحيفة فلم يبق من أجله إلا نصف طرفة عين ، فمات إدريس بين

جناحي الملك [١] . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : سألت كعبًا فذكر نحوه ، فهذا هو من الإسرائيليات التى يرويها كعب . وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : رفع إدريس إلى السماء السادسة . وأخرج الترمذى وصححه، وابن المنذر وابن مردويه قال :حدثنا أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « لما عرج بى رأيت إدريس فى السماء الرابعة » [٢] . وأخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى مرفوعًا نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية قال : رفع إدريس كما رفع عيسى ولم يمت. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: إدريس هو إلياس . وحسنه السيوطى .

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدّى فى قوله: ﴿ **أولئك الذين أنعم الله عليهم** ﴾ إلى آخره ، قال : هذه تسمية الأنبياء الذين ذكرهم ؛ أما من ذرية آدم : فإدريس ونوح ؛ وأما من حمل مع نوح فإبراهيم؛ وأما ذرية إبراهيم: فإسماعيل، وإسحاق ويعقوب؛ وأما ذرية إسرائيل : فموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى ، وعيسى. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف** ﴾ قال : هم اليهود والنصارى . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى الآية قال: هم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله فى السماء . وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود فى قوله: ﴿**أضاعوا الصلاة**﴾ قال : ليس إضاعتها تركها قد يضيع الإنسان الشىء ولا يتركه، ولكن إضاعتها : إذا لم يصلها لوقتها. وأخرج أحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن حبان، والحاكم وصححه ، وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن أبى سعيد الخدرى سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات** ﴾ الآية قال : « يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴿**فسوف يلقون غيا**﴾، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن، ومنافق، وفاجر »[٣] وأخرج أحمد ، والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن » قلت : يا رسول الله، ما أهل الكتاب ؟ قال : « قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا » ، قلت: ما أهل اللبن ؟ قال : « قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات » [٤]. وأخرج ابن أبى حاتم

---

(١) ذكر الإمام ابن كثير ٤/ ٤٦٥، ٤٤٦ هذا الأثر ونحوه من رواية ابن أبى حاتم وابن جرير وقال : « هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات ، وفى بعضه نكارة ، والله أعلم » .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣١٥٧) .

(٣) أحمد ٣/ ٣٨، ٣٩ وابن حبان (٧٥٢) وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٤ وقال: « رواته حجازيون وشاميون أثبات »، وقال الذهبى : « صحيح » والبيهقى فى الشعب (٢٣٨٥) ورجاله موثقون غير شيخ الحاكم عبد الله بن إسحاق. قال الدارقطنى : « فيه لين فلعله هو » .

(٤) أحمد ٤/ ١٥٦ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٤ ووافقه الذهبى .

وابن مردويه ، والحاكم وصححه عن عائشة ؛ أنها كانت ترسل بالصدقة لأهل الصدقة وتقول : لا تعطوا منها بربريا ولا بربرية ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هم الخلف الذين قال الله : ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾»(١). وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ قال : خسرًا . وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وهناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى البعث من طرق عن ابن مسعود فى قوله: ﴿فسوف يلقون غيا ﴾ قال: الغىّ : نهر ، أو واد فى جهنم من قيح بعيد القعر خبيث الطعم ، يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات . وقد قال بأنه واد فى جهنم البراء بن عازب . وروى ذلك عنه ابن المنذر والطبرانى . وأخرج ابن جرير والطبرانى والبيهقى عن أبى أمامة قال :قال رسول الله ﷺ : « لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفًا ، ثم تنتهى إلى غىّ وأثام » ، قلت : وما غىّ وأثام ؟ قال : « نهران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللذان ذكر الله فى كتابه : ﴿فسوف يلقون غيا ﴾ ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾ » [الفرقان : ٦٨] (٢) وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « الغى واد فى جهنم » .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا فى قوله : ﴿ بكرة وعشيا ﴾ قال : يؤتون به فى الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من طريق أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : قال رجل : يا رسول الله، هل فى الجنة من ليل ؟ قال: « وما هيجك على هذا ؟ » قال : سمعت الله يذكر فى الكتاب : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ فقلت : الليل من البكرة والعشى ، فقال رسول الله ﷺ : « ليس هناك ليل، وإنما هو ضوء ونور ، يرد الغدّو على الرواح والرواح على الغدّو، تأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا، وتسلم عليهم الملائكة». وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات ، إلا (٣) أنه يزف إلى ولى الله فيها زوجة من الحور العين وأدناهنّ التى خلقت من الزعفران » قال بعد إخراجه : قال أبو محمد : هذا حديث منكر.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٤٤ وقال الذهبى : « عبيد الله مختلف فى توثيقه ، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع » وقال ابن كثير : « هذا حديث غريب » .

(٢) ابن جرير ١٦/ ٧٥ والطبرانى (٧٧٣١) وقال ابن كثير ٤/ ٤٧٠ : « هذا حديث غريب ورفعه منكر » .

(٣) فى المطبوعة : « إلى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **وما نتنزل** ﴾ أى قال اللّه سبحانه : قل يا جبريل : وما نتنزل، وذلك أن رسول اللّه ﷺ استبطأ نزول جبريل عليه، فأمر جبريل أن يخبره بأن الملائكة ما تتنزل عليه إلا بأمر اللّه [١] قيل : احتبس جبريل عن رسول اللّه ﷺ أربعين يومًا. وقيل : خمسة عشر. وقيل : اثنى عشر. وقيل : ثلاثة أيام . وقيل : إن هذا حكاية عن أهل الجنة ، وأنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان ﴿ **إلا بأمر ربك** ﴾ والأوّل أولى بدلالة ما قبله ، ومعناه يحتمل وجهين : الأوّل : وما نتنزّل عليك إلا بأمر ربك لنا بالتنزل. والثانى : وما نتنزل عليك إلا بأمر ربك الذى يأمرك به بما شرعه لك ولأمتك ، والتنزّل : النزول على مهل، وقد يطلق على مطلق النزول. ثم أكد جبريل ما أخبر به النبى ﷺ فقال : ﴿ **له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك** ﴾ أى من الجهات والأماكن ،أو من الأزمنة الماضية والمستقبلة، وما بينهما من الزمان أو المكان الذى نحن فيه ، فلا نقدر على أن ننتقل من جهة إلى جهة ، أو من زمان إلى زمان إلا بأمر ربك ومشيئته. وقيل : المعنى : له ما سلف من أمر الدنيا وما يستقبل من أمر الآخرة وما بين ذلك ، وهو ما بين النفختين . وقيل : الأرض التى بين أيدينا إذا نزلنا ، والسماء التى وراءنا وما بين السماء والأرض . وقيل : ما مضى من أعمارنا وما غبر منها والحالة التى نحن فيها. وعلى هذه الأقوال كلها يكون المعنى : أن اللّه سبحانه هو المحيط بكل شىء لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرّة ، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه، وقال : ﴿ **وما بين ذلك** ﴾ ولم يقل : وما بين ذينك ، لأن المراد : وما بين ما ذكرنا كما فى قوله سبحانه : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ [البقرة : ٦٨] ﴿ **وما كان ربك نسيا** ﴾ أى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل : المعنى : إنه عالم بجميع الأشياء لا ينسى منها شيئًا . وقيل: المعنى : وما كان ربك ينسى الإرسال إليك عند الوقت الذى يرسل فيه رسله .

﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى خالقهما وخالق ما بينهما ، ومالكهما ومالك ما بينهما، ومن كان هكذا فالنسيان محال عليه. ثم أمر اللّه نبيه ﷺ بعبادته والصبر عليها فقال: ﴿ **فاعبده واصطبر لعبادته** ﴾ والفاء للسببية لأن كونه ربّ العالمين سبب موجب لأن يعبد ، وعدى فعل الصبر باللام دون على التى يتعدّى بها لتضمنه معنى الثبات ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾

---

(١) الترمذى (٣١٥٨) .

الاستفهام للإنكار. والمعنى : أنه ليس له مثل ولا نظير حتى يشاركه في العبادة، فيلزم من ذلك أن تكون غير خالصة له سبحانه ، فلما انتفى المشارك استحق اللّه سبحانه أن يفرد بالعبادة وتخلص له، هذا مبنى على أن المراد بالسمى : هو الشريك في المسمى . وقيل : المراد به : الشريك في الاسم كما هو الظاهر من لغة العرب، فقيل : المعنى : إنه لم يسم شيء من الأصنام ولا غيرها باللّه قط، يعني بعد دخول الألف واللام التى عوضت عن الهمزة ولزمت. وقيل : المراد : هل تعلم أحدًا اسمه الرحمن غيره ؟ . قال الزجاج : تأويله واللّه أعلم : هل تعلم له سميا يستحق أن يقال له : خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون ، وعلى هذا لا سميّ للّه في جميع أسمائه، لأن غيره وإن سمى بشيء من أسمائه، فللّه سبحانه حقيقة ذلك الوصف، والمراد بنفي العلم المستفاد من الإنكار هنا : نفي المعلوم على أبلغ وجه وأكمله .

﴿ **ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا** ﴾ قرأ الجمهور على الاستفهام ، وقرأ ابن ذكوان : « إذا ما مت » على الخبر، والمراد بالإنسان ها هنا : الكافر؛ لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث. وقيل : اللام في الإنسان للجنس بأسره وإن لم يقل هذه المقالة إلا البعض ، وهم الكفرة فقد يسند إلى الجماعة ما قام بواحد منهم ، والمراد بقوله : ﴿**أخرج** ﴾ أى من القبر، والعامل في الظرف فعل دل عليه أخرج ، لأن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها . ﴿ **أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا** ﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي ، والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة قبلها ، والمراد بالذكر هنا : إعمال الفكر ، أى ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة ، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة، لأن النشأة الأولى هى إخراج لهذه المخلوقات من العدم إلى الوجود ابتداعًا واختراعًا، لم يتقدم عليه ما يكون كالمثال له ، وأما النشأة الآخرة فقد تقدم عليها النشأة الأولى فكانت كالمثال لها ، ومعنى ﴿ **من قبل** ﴾: قبل الحالة التي هو عليها الآن، وجملة: ﴿ **ولم يك شيئا** ﴾ في محل نصب على الحال، أى والحال أنه لم يكن حينئذ شيئًا من الأشياء أصلا، فإعادته بعد أن كان شيئًا موجودًا أسهل وأيسر . قرأ أهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر وأهل الكوفة إلا عاصمًا : «أو لا يذكر» بالتشديد، وأصله: يتذكر. وقرأ شيبة ونافع وعاصم وابن عامر «يذكر» بالتخفيف، وفي قراءة أبي : « أو لا يتذكر » .

ثم لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة التي أجمع العقلاء على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضافًا إلى رسوله تشريفًا له وتعظيمًا، فقال : ﴿**فوربك لنحشرنهم** ﴾ ومعنى ﴿ **لنحشرنهم** ﴾ لنسوقنهم إلى المحشر بعد إخراجهم من قبورهم أحياء كما كانوا ، والواو في قوله : ﴿ **والشياطين** ﴾ للعطف على المنصوب ، أو بمعنى مع. والمعنى: أن هؤلاء الجاحدين يحشرهم اللّه مع شياطينهم الذين أغروهم وأضلوهم ، وهذا ظاهر على جعل اللام في الإنسان للعهد ، وهو الإنسان الكافر، وأما على جعلها للجنس فكونه قد وجد في الجنس من يحشر مع شيطانه ﴿**ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا**﴾ الجثيّ جمع جاث،

من قولهم : جثا على ركبتيه يجثو جثوا ، وهو منتصب على الحال ، أى جاثين على ركبهم لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، أو لكون الجثى على الركب شأن أهل الموقف كما فى قوله سبحانه: ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ [الجاثية : ٢٨] . وقيل : المراد بقوله : ﴿ **جثيا** ﴾ : جماعات ، وأصله : جمع جثوة ، والجثوة هى : المجموع من التراب أو الحجارة. قال طرفة :

أرى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد

﴿ **ثم لننزعن من كل شيعة** ﴾ : الشيعة : الفرقة التى تبعت دينًا من الأديان ، وخصص ذلك الزمخشرى فقال: هى الطائفة التى شاعت: أى تبعت غاويًا من الغواة قال الله تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ﴾ [الأنعام : ١٥٩] . ومعنى : ﴿ **أيهم أشد على الرحمن عتيا** ﴾ من كان أعصى لله وأعتى فإنه ينزع من كل طائفة من طوائف الغى والفساد أعصاهم وأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحهم فى جهنم . والعتى ها هنا مصدركالعتو، وهو التمرّد فى العصيان. وقيل : المعنى : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشرّ. وقد اتفق القراء على قراءة ﴿ **أيهم** ﴾ بالضم إلا هارون الغازى فإنه قرأها بالفتح . قال الزجاج :فى رفع أيهم ثلاثة أقوال : الأوّل : قول الخليل بن أحمد : إنه مرفوع على الحكاية، والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم : أيهم أشد. وأنشد الخليل فى ذلك قول الشاعر :

وقد أبيت من الفتاة بمنزل فأبيت لا حرج ولا محروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له: هو لا حرج ولا محروم. قال النحاس: ورأيت أبا إسحاق، يعنى الزجاج، يختار هذا القول ويستحسنه. القول الثانى : قول يونس : وهو أن ﴿ **لننزعن** ﴾ بمنزلة الأفعال التى تلغى وتعلق. فهذا الفعل عنده معلق عن العمل فى أى، وخصص الخليل وسيبويه وغيرهما التعليق بأفعال الشك ونحوها مما لم يتحقق وقوعه . القول الثالث : قول سيبويه: إن أيهم ها هنا مبنى على الضم ، لأنه خالف أخواته فى الحذف ، وقد غلط سيبويه فى قوله هذا جمهور النحويين حتى قال الزجاج : ما تبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما ، وللنحويين فى إعراب « أيهم » هذه فى هذا الموضع كلام طويل .

﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾ يقال : صلى يصلى صليا مثل مضى الشىء يمضى مضيا . قال الجوهرى : يقال صليت الرجل نارًا إذا أدخلته النار وجعلته يصلاها ، فإن ألقيته إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصليته تصلية ومنه : ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ [الانشقاق : ١٢] ومن خفف فهو من قولهم : صلى فلان النار بالكسر يصلى صليا احترق ، قال الله تعالى : ﴿ **الذين هم أولى بها صليا** ﴾ قال العجاج :

والله لولا النار أن تصلاها

ومعنى الآية : أن هؤلاء الذين هم أشد على الرحمن عتيا هم أولى بصليها ، أو صليهم أولى بالنار .

﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ الخطاب للناس من غير التفات ، أو للإنسان المذكور، فيكون التفاتا ، أى ما منكم من أحد إلا واردها ، أى واصلها . وقد اختلف الناس فى هذا الورود. قيل : الورود: الدخول ويكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورود هو : المرور على الصراط. وقيل : ليس الورود الدخول إنما هو كما يقول : وردت البصرة ولم أدخلها ، وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورود ، وحمله على ظاهره لقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ [الأنبياء: ١٠١] قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدّل على أن الورود لا يستلزم الدخول قوله تعالى : ﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ [القصص : ٢٣] فإن المراد : أشرف عليه لا أنه دخل فيه ، ومنه قول زهير :

فلما وردن الماء زرقًا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم

ولا يخفى أن القول بأن الورود هو: المرور على الصراط، أو الورود على جهنم وهى خامدة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغى حمل هذه الآية على ذلك ، لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعدًا من عذابهما ، أو بحمله على المضى فوق الجسر المنصوب عليها ، وهو الصراط ﴿ **كان على ربك حتما مقضيا** ﴾ أى كان ورودهم المذكور أمرًا محتومًا قد قضى سبحانه أنه لابد من وقوعه لا محالة. وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه.

﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ أى اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به. قرأ عاصم والجحدرى ومعاوية بن قرة : « ننجى » بالتخفيف من أنجى، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائى، وقرأ الباقون بالتشديد ، وقرأ ابن أبى ليلى : «ثم نذر» بفتح الثاء من ثم ، والمراد بالظالمين : الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار ، أو ظلموا غيرهم بمظلمة فى النفس أو المال أو العرض ، والجثى جمع جاث ، وقد تقدم قريبًا تفسير الجثى وإعرابه .

وقد أخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل :« ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا » فنزلت . ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ إلى آخر الآية [1] . وزاد ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وكان ذلك الجواب لمحمد . وأخرج ابن مردويه من حديث أنس قال : سئل رسول الله ﷺ : أى البقاع أحب إلى الله ، وأيها أبغض إلى الله ؟ قال :

(١) البخارى فى التفسير(٤٧٣١) والترمذى فى التفسير (٣١٥٨) وقال: « حديث حسن غريب » .

«ما أدرى حتى أسأل » ، فنزل جبريل ، وكان قد أبطأ عليه ، فقال : « لقد أبطأت على حتى ظننت أن بربى على موجدة » ، فقال : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : أبطأ جبريل على النبى ﷺ أربعين يومًا ثم نزل، فقال له النبى ﷺ : « ما نزلت حتى اشتقت إليك » ، فقال له جبريل : أنا كنت إليك أشوق ، ولكنى مأمور، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وهو مرسل . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : أبطأت الرسل على رسول الله ﷺ ، ثم أتاه جبريل فقال له : « ما حبسك عنى ؟ » قال : وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنقون براجمكم ، ولا تأخذون شواربكم ، ولا تستاكون ؟ وقرأ : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾ . وهو مرسل أيضًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ **له ما بين أيدينا** ﴾ قال من أمر الآخرة ﴿ **وما خلفنا** ﴾ قال : من أمر الدنيا ﴿**وما بين ذلك** ﴾ قال : ما بين الدنيا والآخرة . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **وما بين ذلك**﴾ قال: ما بين النفختين. وأخرج ابن المنذر عن أبى العالية مثله . وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والطبرانى والبيهقى ، والحاكم وصححه عن أبى الدرداء رفع الحديث قال : «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئًا » ثم تلا : ﴿ **وما كان ربك نسيا**﴾ (١) .

وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه، والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ قال : هل تعرف للربّ شبهًا أو مثلا. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، والبيهقى فى الشعب عنه :﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ قال : ليس أحد يسمى الرحمن غيره . وأخرج ابن مردويه عنه أيضًا فى الآية قال : يا محمد هل تعلم لإلهك من ولد ؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ويقول الإنسان** ﴾ قال : العاص بن وائل، وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **جثيا** ﴾ قال : قعودًا، وفى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : معصية. وأخرج ابن جرير عنه فى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾ قال : عصيا . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ثم لننزعن** ﴾ قال : لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤوسهم فى الشر. وأخرج ابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن مسعود قال : نحشر الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أثارهم جميعًا، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرمًا، ثم قرأ : ﴿ **فوربك لنحشرنهم**﴾ إلى قوله : ﴿ **عتيا** ﴾.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا** ﴾ قال : يقول : إنهم أولى بالخلود فى جهنم . وأخرج أحمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذى

---

(١) البيهقى ١٠/ ١٢ وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٥ ووافقه الذهبى .

وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه، وابن مردويه والبيهقى عن أبى سمية قال : اختلفنا فى الورود ، فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا : يدخلونها جميعًا ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له ، فقال وأهوى بأصبعه إلى أذنيه : صُمَّتَا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول :« لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا ، كما كانت على إبراهيم ، حتى إن للنار ضجيجًا من بردها . ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ » [١] . وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن مجاهد قال : خاصم نافع بن الأزرق ابن عباس ، فقال ابن عباس : الورود : الدخول، وقال نافع : لا، فقرأ ابن عباس : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ [الأنبياء : ٩٨] وقال : وردوا أم لا ؟ وقرأ : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ [هود : ٩٨] أوردوا أم لا ؟ أما أنا وأنت فسندخلها فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وأخرج الحاكم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها. وأخرج هناد والطبرانى عنه فى الآية قال: ورودها الصراط. وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى وابن الأنبارى وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ : « ليرد الناس كلهم النار، ثم يصدرون عنها بأعمالهم، فأولّهم كلمح البرق، ثم كالريح، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشدّ الرحل . ثم كمشيه » [٢] وقد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق . وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ يقول : « مجتاز فيها » .

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية » ، قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قالت : ألم تسمعيه يقول : ﴿ **ثم ننجى الذين اتقوا** ﴾ [٣]. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم » ثم قرأ سفيان : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ [٤] . وأخرج أحمد والبخارى فى تاريخه، وأبو يعلى والطبرانى وابن مردويه عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ قال : « من حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعًا لا يأخذه سلطان ؛ لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم ، فإن الله يقول : ﴿ **وإن منكم**

---

(١) أحمد ٣/ ٣٢٩ وصححه الحاكم ٤/ ٥٨٧ عن ابن مسعود ووافقه الذهبى ، وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨ : «رجاله ثقات » والبيهقى فى الشعب (٣٦٤) وقال : « هذا إسناد حسن ذكره البخارى فى التاريخ » .

(٢) أحمد ١/ ٤٣٣ والترمذى فى التفسير (٣١٦٠) وصححه الحاكم ٢/ ٣٧٥ ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الشعب بمعناه موقوفًا ٢/ ٣٥٧ .

(٣) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٩٦/ ١٦٣) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨١).

(٤) البخارى فى الجنائز (١٢٥١) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٢/ ١٥٠) وأحمد ٢/ ٢٣٩، ٢٤٠ .

إلا واردها ﴾ »[١] والأحاديث فى تفسير هذه الآية كثيرة جدًا. وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **حتما مقضيا** ﴾ قال : قضاء من اللّه. وأخرج الخطيب فى تالى التلخيص عن عكرمة حتمًا مقضيا قال : قسمًا واجبًا . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ قال : باقين فيها .

﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦) أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)** ﴾ .

الضمير فى ﴿ **عليهم** ﴾ راجع إلى الكفار الذين سبق ذكرهم فى قوله : ﴿ **أئذا ما مت لسوف أخرج حيا** ﴾ أى هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعذروا بالدنيا، وقالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أطيب من حالنا ، ولم يكن بالعكس ، لأن الحكيم لا يليق به أن يهين أولياءه ويعزّ أعداءه ، ومعنى البينات: الواضحات التى لا تلتبس معانيها. وقيل: ظاهرات الإعجاز. وقيل : إنها حجج وبراهين ، والأوّل أولى . وهى حال مؤكدة لأن آيات اللّه لا تكون إلا واضحة، ووضع الظاهر موضع المضمر فى قوله : ﴿ **قال الذين كفروا** ﴾ للإشعار بأن كفرهم هو السبب لصدور هذا القول عنهم ، وقيل : المراد بالذين كفروا هنا : هم المتمردون المصرون منهم ، ومعنى قالوا ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ : قالوا لأجلهم. وقيل : هذه اللام هى لام التبليغ كما فى قوله : ﴿ وقال لهم نبيهم ﴾ [البقرة : ٢٤٧] أى خاطبوهم بذلك وبلغوا القول إليهم ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ المراد بالفريقين : المؤمنون والكافرون ، كأنهم قالوا : أفريقنا خير أم فريقكم ، قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مقامًا » بضم الميم ، وهو موضع الإقامة ، ويجوز أن يكون مصدرًا بمعنى الإقامة ، قرأ الباقون بالفتح ، أى منزلا ومسكنًا. وقيل : المقام : الموضع الذي يقام فيه بالأمور الجليلة، والمعنى : أى الفريقين أكبر جاهًا وأكثر أنصارًا وأعوانًا، والندى والنادى : مجلس القوم ومجتمعهم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ تأتون فى ناديكم المنكر﴾ [العنكبوت : ٢٩] وناداه : جالسه فى النادى، ومنه دار الندوة ؛ لأن المشركين

---

(١) أحمد ٣/ ٤٣٧ ، ٤٣٨ وأبو يعلى (١٤٩٠) وإسناده ضعيف ؛ فيه رشدين بن سعد وزبان بن فائد ، والطبرانى ٢٠ / ١٨٥ (٤٠٢) .

كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم، ومنه أيضًا قول الشاعر :

أنادى به آل الوليد وجعفرا

﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ القرن : الأمة والجماعة ﴿ **هم أحسن أثاثا ورئيا** ﴾ الأثاث : المال أجمع ، الإبل والغنم والبقر والعبيد والمتاع. وقيل : هو متاع البيت خاصة. وقيل : هو الجديد من الفرش. وقيل : اللباس خاصة. واختلفت القراءات فى : ﴿ **ورئيا** ﴾ ، فقرأ أهل المدينة وابن ذكوان : « وريا » بياء مشدّدة ، وفى ذلك وجهان : أحدهما : أن يكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء وأدغمت الياء فى الياء والمعنى على هذه القراءة : هم أحسن منظرًا وبه قول جمهور المفسرين ، وحسن المنظر يكون من جهة حسن اللباس ، أو حسن الأبدان وتنعمها ، أو مجموع الأمرين . وقرأ أهل الكوفة وأبو عمرو وابن كثير : « ورئيًا » وحكاها ورش عن نافع وهشام عن ابن عامر، ومعناها معنى بالقراءة الأولى. وقال الجوهرى : من همز جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة ، وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا بذى الرئى الجميل من الأثاث

ومن لم يهمز : إما أن يكون من تخفيف الهمزة، أو يكون من رويت ألوانهم أو جلودهم ريًا، أى امتلأت وحسنت. وقد ذكر الزجاج معنى هذا كما حكاه عنه الواحدى. وحكى يعقوب أن طلحة بن مصرف قرأ بياء واحدة خفيفة ، فقيل : إن هذه القراءة غلط ، ووجهها بعض النحويين أنه كان أصلها الهمزة فقلبت ياء ثم حذفت إحدى الياءين، وروى عن ابن عباس أنه قرأ بالزاى مكان الراء، وروى مثل ذلك عن أبى بن كعب وسعيد بن جبير والأعصم المكى واليزيدى. والزى : الهيئة والحسن. وقيل : ويجوز أن يكون من زويت : أى جمعت، فيكون أصلها : زويا، فقلبت الواو ياء، والزى : محاسن مجموعة .

﴿ **قل من كان فى الضلالة** ﴾ أمر اللّه سبحانه رسوله ﷺ أن يجيب على هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية، أى من كان مستقرًا فى الضلالة ﴿ **فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة ، وأن ذلك كائن لا محالة لتنقطع معاذير أهل الضلال ، ويقال لهم يوم القيامة : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ [فاطر : ٣٧] أو للاستدراج كقوله سبحانه : ﴿ إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ [آل عمران : ١٧٨] وقيل: المراد بالآية : الدعاء بالمد والتنفيس. قال الزجاج : تأويله : أن اللّه جعل جزاء ضلالته أن يتركه ويمده فيها ، لأن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن المتكلم يقول : أفعل ذلك وآمر به نفسى ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون** ﴾ يعنى الذين مد لهم فى الضلالة، وجاء بضمير الجماعة اعتبارًا بمعنى من، كما أن قوله: ﴿ **كان فى الضلالة فليمدد له** ﴾ اعتبار بلفظها، وهذه غاية للمدّ، لا لقول المفتخرين إذ ليس فيه امتداد ﴿**إما العذاب وإما الساعة**﴾

هذا تفصيل لقوله : ﴿ **ما يوعدون** ﴾ أى هذا الذى توعدون هو أحد أمرين : إما العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر، وإما يوم القيامة وما يحل بهم حينئذ من العذاب الأخروى ﴿**فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا** ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو جواب على المفتخرين ، أى هؤلاء القائلون : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ إذا عاينوا ما يوعدون به من العذاب الدنيوى بأيدى المؤمنين ، أو الأخروى ، فسيعلمون عند ذلك من هو شر مكانًا من الفريقين ، وأضعف جندًا منهما ، أي أنصارًا وأعوانًا . والمعنى : أنهم سيعلمون عند ذلك أنهم شرّ مكانًا لا خير مكانا، وأضعف جندًا لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين ؛ وليس المراد أن للمفتخرين هنالك جندًا ضعفاء ، بل لا جند لهم أصلا كما فى قوله سبحانه : ﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون اللّه وما كان منتصرا ﴾ [الكهف : ٤٣] .

ثم لما أخبر سبحانه عن حال أهل الضلالة، أراد أن يبين حال أهل الهداية فقال : ﴿**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ وذلك أن بعض الهدى يجرّ إلى البعض الآخر، والخير يدعو إلى الخير. وقيل : المراد بالزيادة : العبادة من المؤمنين ، والواو فى ﴿ **ويزيد** ﴾ للاستئناف ، والجملة مستأنفة لبيان حال المهتدين . وقيل : الواو للعطف على ﴿ **فليمدد** ﴾ . وقيل : للعطف على جملة ﴿ **من كان فى الضلالة** ﴾. قال الزجاج : المعنى : أن اللّه يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقينًا كما جعل جزاء الكافرين أن يمدهم فى ضلالتهم ﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا**﴾ هى الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، ومعنى كونها خيرًا عند اللّه ثوابًا : أنها أنفع عائدة مما يتمتع به الكفار من النعم الدنيوية ﴿ **وخير مردا** ﴾ المردّ هاهنا مصدر كالردّ، والمعنى : وخير مردًا للثواب على فاعلها ليست كأعمال الكفار التى خسروا فيها، والمردّ : المرجع والعاقبة والتفضل للتهكم بهم للقطع بأن أعمال الكفار لا خير فيها أصلا.

ثم أردف سبحانه مقالة أولئك المفتخرين بأخرى مثلها على سبيل التعجب فقال : ﴿**أفرأيت الذى كفر بآياتنا** ﴾ أى أخبرنى بقصة هذا الكافر واذكر حديثه عقب حديث أولئك، وإنما استعملوا أرأيت بمعنى أخبر، لأن رؤية الشيء من أسباب صحة الخبر عنه، والآيات تعم كل آية ومن جملتها آية البعث، والفاء للعطف على مقدّر يدل عليه المقام، أى أنظرت فرأيت، واللام فى ﴿**لأوتين مالا وولدا** ﴾ هى الموطئة للقسم، كأنه قال : واللّه لأوتين فى الآخرة مالا وولدًا، أى انظر إلى حال هذا الكافر وتعجب من كلامه وتأليه على اللّه مع كفره به وتكذيبه بآياته.

ثم أجاب سبحانه عن قول هذا الكافر بما يدفعه ويبطله، فقال: ﴿ **أطلع** ﴾ على ﴿ **الغيب** ﴾ أى أعلم ما غاب عنه حتى يعلم أنه فى الجنة ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ بذلك ، فإنه لا يتوصل إلى العلم إلا بإحدى هاتين الطريقتين . وقيل : المعنى : أنظر فى اللوح المحفوظ ؟ أم اتخذ عند الرحمن عهدًا ؟ وقيل: معنى ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ : أم قال: لا إله إلا اللّه

فأرحمه بها. وقيل : المعنى : أم قدّم عملا صالحًا فهو يرجوه. واطلع مأخوذ من قولهم : اطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه. وقرأ حمزة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش : « وولدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها ، فقيل : هما لغتان معناهما واحد، يقال : ولد وولد كما يقال : عدم وعُدم ، قال الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشرًا ... قد ثمروا مالا وولدًا

وقال آخر :

فليت فلانًا كان فى بطن أمه ... وليت فلانًا كان ولد حمار

وقيل : الولد بالضم للجمع وبالفتح للواحد. وقد ذهب الجمهور إلى أن هذا الكافر أراد بقوله : ﴿ **لأوتين مالا وولدا** ﴾ أنه يؤتى ذلك فى الدنيا. وقال جماعة : فى الجنة، وقيل: المعنى: إن أقمت على دين آبائى لأوتين . وقيل : المعنى : لو كنت على باطل لما أوتيت مالا وولدًا .

﴿ **كلا سنكتب ما يقول** ﴾ : « كلا » حرف ردع وزجر، أى ليس الأمر على ما قال هذا الكافر من أنه يؤتى المال والولد ، سيكتب ما يقول : أى سنحفظ عليه ما يقول فنجازيه فى الآخرة، أو سنظهر ما يقول، أو سننتقم منه انتقام من كتبت معصيته ﴿ **ونمد له من العذاب مدا** ﴾ أى نزيده عذابًا فوق عذابه مكان ما يدعيه لنفسه من الإمداد بالمال والولد ، أو نطول له من العذاب ما يستحق وهو عذاب من جمع بين الكفر والاستهزاء . ﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ أى نميته فنرثه المال والولد الذى يقول إنه يؤتاه. والمعنى : مسمى ما يقول ومصداقه. وقيل : المعنى نحرمه ما تمناه ونعطيه غيره . ﴿ **ويأتينا فردا** ﴾ أى يوم القيامة لا مال له ولا ولد ،بل نسلبه ذلك، فكيف يطمع فى أن نؤتيه. وقيل : المراد بما يقول : نفس القول لا مسماه ، والمعنى : إنما يقول هذا القول ما دام حيا ، فإذا أمتناه حلنا بينه وبين أن يقوله ويأتينا رافضًا له منفردًا عنه، والأوّل أولى .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما** ﴾ قال : قريش تقوله لها ولأصحاب محمد. وأخرج الفريابى وسعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **خير مقاما** ﴾ قال : المنازل ﴿ **وأحسن نديا** ﴾ قال : المجالس ، وفى قوله : ﴿ **أحسن أثاثا** ﴾ قال : المتاع والمال ﴿**ورئيا** ﴾ قال : المنظر . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا** ﴾ : فليدعه الله فى طغيانه. وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن حبيب بن أبى ثابت قال فى حرف أبى : «قل من كان فى الضلالة فإنه يزيده الله ضلالة » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما فى قوله : ﴿ **أفرأيت الذى كفر** ﴾ من حديث خباب بن

الأرت قال : كنت رجلا قينًا وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه فقال : لا واللّه لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : واللّه لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك، فأنزل اللّه فيه هذه الآية (١) . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال : لا إله إلا اللّه يرجو بها . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ قال : ماله وولده .

﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾ .**

حكى سبحانه ما كان عليه هؤلاء الكفار الذين تمنوا ما لا يستحقونه، وتألوا على اللّه سبحانه من اتخاذهم الآلهة من دون اللّه لأجل يتعززون بذلك. قال الهروى : معنى ﴿ **ليكونوا لهم عزا** ﴾ : ليكونوا لهم أعوانًا. قال الفراء : معناه : ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة. وقيل : معناه : ليتعززوا بهم من عذاب اللّه ويمتنعوا بها . ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم** ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا ، والضمير فى الفعل إما للآلهة ، أى ستجحد هذه الأصنام عبادة الكفار لها يوم ينطقها اللّه سبحانه ، لأنها عند أن عبدوها جمادات لا تعقل ذلك، وإما للمشركين ، أى سيجحد المشركون أنهم عبدوا الأصنام، ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ [القصص : ٦٣] وقوله : ﴿ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ [النحل : ٨٦] ويدل على الوجه الثانى قوله تعالى: ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام: ٢٣] وقرأ ابن أبى نهيك : « كلا » بالتنوين ، وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها ، فعلى الضم هى بمعنى جميعًا ، وانتصابها بفعل مضمر ، كأنه قال : سيكفرون كلا سيكفرون بعبادهم ، وعلى الفتح يكون مصدرًا لفعل محذوف تقديره : كل هذا الرأى كلا ،

(١) أحمد ٥/ ١١٠، ١١١ والبخارى فى التفسير (٤٧٣٢) ومسلم فى صفات المنافقين (٢٧٩٥/ ٣٥) .

وقراءة الجمهور هي الصواب ، وهي حرف ردع وزجر ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أى تكون هذه الآلهة التى ظنوها عزا لهم ضدًا عليهم ، أى ضدا للعز وضد العز : الذل ، هذا على الوجه الأول . وأما على الوجه الثانى فيكون المشركون للآلهة ضدا وأعداء يكفرون بها بعد أن كانوا يحبونها ويؤمنون بها.

﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين** ﴾ ذكر الزجاج فى معنى هذا وجهين: أحدهما : أن معناه: خلينا بين الكافرين وبين الشياطين فلم نعصمهم [1] منهم ولم نعذهم ، بخلاف المؤمنين الذين قيل فيهم : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ [الإسراء : ٦٥] الوجه الثانى: أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم قال :﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ﴾ [الزخرف : ٣٦] فمعنى الإرسال ها هنا : التسليط ، ومن ذلك قوله سبحانه لإبليس : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ [الإسراء : ٦٤] ويؤيد الوجه الثانى تمام الآية ، وهو ﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ فإن الأز والهز والاستفزاز معناه: التحريك والتهييج والإزعاج ، فأخبر اللّه سبحانه أن الشياطين تحرك الكافرين وتهيجهم وتغويهم، وذلك هو التسليط لها عليهم. وقيل : معنى الأز: الاستعجال ، وهو مقارب لما ذكرنا ؛ لأن الاستعجال تحريك وتهييج واستفزاز وإزعاج، وسياق هذه الآية لتعجيب رسول اللّه ﷺ من حالهم ، وللتنبيه له على أن جميع ذلك بإضلال الشياطين وإغوائهم ، وجملة :﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أو مستأنفة على تقدير سؤال يدل عليه المقام ،كأنه قيل : ماذا تفعل الشياطين بهم ؟

﴿ **فلا تعجل عليهم** ﴾ بأن تطلب من اللّه إهلاكهم بسبب تصميمهم على الكفر، وعنادهم للحق ، وتمردهم عن داعى اللّه سبحانه. ثم علل سبحانه هذا النهى بقوله : ﴿ **إنما نعد لهم عدا**﴾ يعنى نعد الأيام والليالى والشهور والسنين من أعمارهم إلى انتهاء آجالهم . وقيل : نعدّ أنفاسهم . وقيل : خطواتهم . وقيل : لحظاتهم . وقيل : الساعات. وقال قطرب : نعد أعمالهم . وقيل : المعنى : لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثمًا .

ثم لما قرر سبحانه أمر الحشر وأجاب عن شبهة منكريه أراد أن يشرح حال المكلفين حينئذ، فقال : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر، أى اذكر يا محمد يوم الحشر. وقيل: منصوب بالفعل الذى بعده ، ومعنى حشرهم إلى الرحمن : حشرهم إلى جنته ودار كرامته ، كقوله : ﴿ إنى ذاهب إلى ربى ﴾ [الصافات:٩٩] والوفد جمع وافد ، كالركب جمع راكب، وصحب جمع صاحب، يقال : وفد يفد وفدًا إذا خرج إلى ملك أو أمر خطير كذا قال الجوهرى. ﴿ **ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا** ﴾ السوق : الحث على السير، والورد: العطاش، قاله الأخفش وغيره. وقال الفراء وابن الأعرابى :هم المشاة، وقال الأزهرى : هم المشاة العطاش كالإبل ترد الماء. وقيل: ﴿ **وردا** ﴾ أى للورد، كقولك : جئتك إكرامًا، أى

(١) فى المطبوعة : « فلم نعصهم » والصواب ما أثبتناه .

للإكرام. وقيل: أفرادًا. قيل: ولا تناقض بين هذه الأقوال فهم يساقون مشاة عطاشًا أفرادًا، وأصل الورد: الجماعة التى ترد الماء من طير أو إبل أو قوم أو غير ذلك . والورد : الماء الذى يورد.

وجملة : ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ مستأنفة لبيان بعض ما يكون فى ذلك اليوم من الأمور، والضمير فى ﴿ **يملكون** ﴾ راجع إلى الفريقين . وقيل : للمتقين خاصة. وقيل : للمجرمين خاصة، والأول أولى . ومعنى ﴿ **لا يملكون الشفاعة** ﴾ : أنهم لا يملكون أن يشفعوا لغيرهم. وقيل : لا يملك غيرهم أن يشفع لهم، والأول أولى ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ هذا الاستثناء متصل على الوجه الأول : أى لا يملك الفريقان المذكوران الشفاعة إلا من استعد لذلك بما يصير به من جملة الشافعين لغيرهم بأن يكون مؤمنًا متقيًا، فهذا معنى اتخاذ العهد عند الله. وقيل : معنى اتخاذ العهد : أن الله أمره بذلك كقولهم : عهد الأمير إلى فلان إذا أمره به . وقيل : معنى اتخاذ العهد : شهادة أن لا إله إلا الله. وقيل غير ذلك. وعلى الاتصال فى هذا الاستثناء يكون محل «من» فى ﴿ **من اتخذ** ﴾ الرفع على البدل، أو النصب على أصل الاستثناء. وأما على الوجه الثانى: فالاستثناء منقطع ؛ لأن التقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ وهم المسلمون. وقيل هو متصل على هذا الوجه أيضًا، والتقدير : لا يملك المجرمون الشفاعة إلا من كان منهم مسلمًا .

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائى : « ولدًا » بضم الواو وإسكان اللام ، وقرأ الباقون فى المواضع الأربعة المذكورة فى هذه السورة بفتح الواو واللام . وقد قدمنا الفرق بين القراءتين . والجملة مستأنفة لبيان قول اليهود والنصارى ومن يزعم من العرب أن الملائكة بنات الله، وفى قوله : ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء، والإد كما قال الجوهرى : الداهية والأمر الفظيع، وكذلك الإدة، وجمع الإدة إدد، يقال : أدت فلانًا الداهية تؤده أدا بالفتح . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى : « أدًا » بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ ابن عباس وأبو العالية: « آدًا » مثل مادا، وهى مأخوذة من الثقل ، يقال : آده الحمل يؤوده : إذا أثقله . قال الواحدى: ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا** ﴾ أى عظيمًا فى قول الجميع، ومعنى الآية : قلتم قولا عظيمًا. وقيل : الإد : العجب، والإدة : الشدة ، والمعنى متقارب، والتركيب يدور على الشدة والثقل .

﴿ **يكاد السموات يتفطرن منه** ﴾ قرأ نافع والكسائى وحفص (١) ويحيى بن وثاب « يكاد » بالتحتية، وقرأ الباقون بالفوقية وقرأ نافع وابن كثير وحفص « يتفطرن » بالتاء الفوقية، وقرأ حمزة وابن عامر وأبو عمرو وأبو بكر والمفضل ﴿ **ينفطرن** ﴾ بالتحتية (٢) من الانفطار ، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ [الانفطار : ١] ، وقوله : ﴿ السماء منفطر به ﴾ [المزمل : ١٨] وقرأ ابن مسعود : « يتصدعن » والانفطار والتفطر : التشقق ﴿ **وتنشق**

(١) المعروف عن حفص بالتاء.

(٢) كذا والصواب : « بالنون ».

الأرض ﴾ أى وتكاد أن تنشق الأرض ، وكرر الفعل للتأكيد لأن تتفطرن وتنشق معناها واحد ﴿ **وتخر الجبال** ﴾ أى تسقط وتنهدم. وانتصاب ﴿ **هدا** ﴾ على أنه مصدر مؤكد؛ لأن الخرور فى معناه ، أو هو مصدر لفعل مقدّر، أى وتنهد هدا، أو على الحال أى مهدودة ، أو على أنه مفعول له ، أى لأنها تنهد. قال الهروى: يقال : هدنى الأمر وهدّ ركنى، أى كسرنى وبلغ منى. قال الجوهرى : هدّ البناء يهدّه هدا كسره وضعضعه، وهدته المصيبة أوهنت ركنه ، وانهد الجبل ، أى انكسر، والهدة: صوت وقع الحائط ، كما قال ابن الأعرابى ، ومحل ﴿ **أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ الجرّ بدلا من الضمير فى ﴿**منه** ﴾ وقال الفراء : فى محل نصب بمعنى لأن دعوا . وقال الكسائى : هو فى محل خفض بتقدير الخافض. وقيل : فى محل رفع على أنه فاعل ﴿ **هدا** ﴾ والدعاء بمعنى التسمية ، أى سموا للرحمن ولدًا، أو بمعنى النسبة أى نسبوا له ولدًا .

﴿ **وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا** ﴾ أى لا يصلح له ولا يليق به لاستحالة ذلك عليه ؛ لأن الولد يقتضى الجنسية والحدوث، والجملة فى محل نصب على الحال،أى قالوا: اتخذ الرحمن ولدًا، أو أن دعوا للرحمن ولدًا، والحال أنه ما يليق به سبحانه ذلك. ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض** ﴾ أى ما كل من فى السموات والأرض ﴿ **إلا** ﴾ وهو ﴿ **آتى** ﴾ اللّه يوم القيامة مقرًا بالعبودية خاضعًا ذليلا كما قال: ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ [النمل : ٧٨] أى صاغرين. والمعنى: أن الخلق كلهم عبيده فكيف يكون واحد منهم ولدًا له؟ وقرئ : « آت » على الأصل. ﴿ **لقد أحصاهم** ﴾ أى حصرهم وعلم عددهم ﴿ **وعدهم عدا** ﴾ أى عد أشخاصهم بعد أن حصرهم فلا يخفى عليه أحد منهم . ﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ أى كل واحد منهم يأتيه يوم القيامة فردًا لا ناصر له ولا مال معه ، كما قال سبحانه : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ [الشعراء : ٨٨].

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويكونون عليهم ضدا** ﴾ قال أعوانًا. وأخرج عبد بن حميد عنه ﴿ **ضدا** ﴾ قال : حسرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضًا قال : ﴿ **تؤزهم أزا** ﴾ : تغويهم إغواء. وأخرج ابن أبى حاتم عنه أيضا : ﴿**تؤزهم أزا** ﴾ قال : تحرّض المشركين على محمد وأصحابه. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال :تزعجهم إزعاجًا إلى معاصى اللّه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس : ﴿ **وفدا** ﴾ قال : ركبانًا. وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن أبى هريرة ﴿ **وفدا** ﴾ قال : على الإبل . وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق : راغبين وراهبين ، واثنان على بعير وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا» [1] والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جدًا.

(١) البخارى فى الرقاق (٦٥٢٢) ومسلم فى الجنة (٢٨٦١/٥٩) والنسائى فى الجنائز ٤/ ١١٤.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث عن ابن عباس: ﴿ **وردا** ﴾ قال : عطاشًا. وأخرج ابن المنذر عن أبى هريرة مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس فى قوله: ﴿**إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا**﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا اللّه ، وتبرأ من الحول والقوّة ، ولا يرجو إلا اللّه. وأخرج ابن مردويه عنه فى الآية قال : من مات لا يشرك باللّه شيئًا دخل الجنة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قرأ :﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ قال : إن اللّه يقول يوم القيامة : من كان له عندى عهد فليقم ، فلا يقوم إلا من قال هذا فى الدنيا، قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك فى الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عملى تقربنى من الشرّ وتباعدنى من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لى عندك عهدًا تؤديه إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه ﷺ : « من أدخل على مؤمن سرورًا فقد سرنى، ومن سرنى فقد اتخذ عند الرحمن عهدًا ، ومن اتخذ عند الرحمن عهدًا فلا تمسه النار، إن اللّه لا يخلف الميعاد ». وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول اللّه ﷺ : «من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها ومواقيتها وركوعها وسجودها لم ينقص منها شيئًا جاء وله عند اللّه عهد ألا يعذبه ، ومن جاء قد انتقص منهن شيئًا فليس له عند اللّه عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه » (١).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **لقد جئتم شيئا إدا**﴾ قال : قولا عظيمًا، وفى قوله : ﴿ **يكاد السموات** ﴾ قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت تزول منه لعظمة اللّه سبحانه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك يرجو أن يغفر اللّه ذنوب الموحدين، وفى قوله: ﴿ **وتخر الجبال هدا** ﴾ قال : هدمًا. وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وابن أبى شيبة ، وأحمد فى الزهد، وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة، والطبرانى والبيهقى فى الشعب من طريق عون عن ابن مسعود قال : إن الجبل لينادى الجبل باسمه ، يا فلان ، هل مر بك اليوم أحد ذكر اللّه ؟ فإذا قال : نعم ، استبشر . قال عون : أفيسمعن الزور إذا قيل ولا يسمعن الخير ؟ هن للخير أسمع ، وقرأ : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾ الآيات .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)** ﴾ .

(١) قال الهيثمى فى المجمع ١/ ٢٩٧، ٢٩٨: « رواه الطبرانى فى الأوسط وقال : لم يروه عن محمد بن عمرو إلا عيسى بن واقد ، قلت : ولم أجد من ذكره »، والحديث عن عائشة .

ذكر سبحانه من أحوال المؤمنين بعض ما خصهم به بعد ذكره لقبائح الكافرين فقال: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ أى حبًا فى قلوب عباده، يجعله لهم من دون أن يطلبوه بالأسباب التى توجب ذلك، كما يقذف فى قلوب أعدائهم الرعب ، والسين فى : ﴿ **سيجعل** ﴾ للدلالة على أن ذلك لم يكن من قبل وأنه مجعول من بعد نزول الآية. وقرئ : « ودًا » بكسر الواو، والجمهور من السبعة وغيرهم على الضم. ثم ذكر سبحانه تعظيم القرآن خصوصًا هذه السورة لاشتمالها على التوحيد والنبوة، وبيان حال المعاندين فقال : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾ أى يسرنا القرآن بإنزالنا له على لغتك، وفصلناه وسهلناه، والباء بمعنى على، والفاء لتعليل كلام ينساق إليه النظم كأنه قيل : بلغ هذا المنزل أو بشر به أو أنذر ﴿ **فإنما يسرناه** ﴾ الآية . ثم علل ما ذكره من التيسير فقال : ﴿ **لتبشر به المتقين** ﴾ أى المتلبسين بالتقوى ، المتصفين بها ﴿ **وتنذر به قوما لدا** ﴾ اللد :جمع الألد ،وهو الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **ألد الخصام** ﴾ [البقرة : ٢٠٤] قال الشاعر :

أبيت نجيًا للهموم كأننى أخاصم أقوامًا ذوى جدل لدًا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق ويدّعى الباطل. وقيل: اللد : الصم . وقيل : الظلمة. ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾ أى من أمة وجماعة من الناس، وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بهلاك الكافرين ووعيد لهم ﴿ **هل تحس منهم من أحد** ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، أى هل تشعر بأحد منهم أو تراه ﴿ **أو تسمع لهم ركزا** ﴾ الركز : الصوت الخفى، ومنه ركز الرمح : إذا غيب طرفه فى الأرض . قال طرفة :

وصادفتها سمع التوجس للسرى لركز خفى أو لصوت مفند

وقال ذو الرمة :

إذا توجس ركزًا مقفر ندس بنبأة الصوت ما فى سمعه كذب

أى فى استماعه كذب بل هو صادق الاستماع ، والندس : الحاذق ، والنبأة : الصوت الخفى.

وقال اليزيدى وأبو عبيدة : الركز : ما لا يفهم من صوت أو حركة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ؛ أنه لما هاجر إلى المدينة وجد فى نفسه على فراق أصحابه بمكة منهم شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف، فأنزل الله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ الآية [1]. قال ابن كثير : وهو خطأ، فإن السورة مكية بكمالها لم ينزل شىء منها بعد الهجرة ولم يصح سند ذلك . وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت فى على بن أبى طالب : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا**

(١) ابن جرير ١٦/ ١٠١ .

الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ قال : محبة فى قلوب المؤمنين [١]. وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى : « قل : اللهم اجعل لى عندك عهدًا ، واجعل لى عندك ودًا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين مودة » ، فأنزل الله الآية فى علىّ [٢]. وأخرج عبد الرزاق والفريابى وعبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس ﴿ **ودا** ﴾ قال : محبة فى الناس فى الدنيا . وأخرج الحكيم الترمذى وابن مردويه عن على قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ ما هو ؟ قال : « المحبة الصادقة فى صدور المؤمنين » . وثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل : إنى قد أحببت فلانًا فأحبه ، فينادى فى السماء ، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ وإذا أبغض الله عبدًا نادى جبريل إنى قد أبغضت فلانًا ، فينادى فى أهل السماء ، ثم ينزل له البغضاء فى الأرض » [٣]. والأحاديث والآثار فى هذا الباب كثيرة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتنذر به قوما لدا** ﴾ قال : فجارًا. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن قال : صمًا. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **هل تحس منهم من أحد** ﴾ قال : هل ترى منهم من أحد. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ركزا** ﴾ قال : صوتًا.

---

(١) الطبرانى (١٢٦٥٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ٥٨ ، ٥٩ : « فيه بشر بن عمارة وهو ضعيف » .

(٢) انظر : الفردوس (١٩٣٢) .

(٣) البخارى فى بدء الخلق (٩ · ٣٢) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٧/ ١٥٧) والترمذى فى التفسير (٣١٦١) وقال: «حديث حسن صحيح » .